كنان فوّاز حمّاد

الساكنان لا يلتقيان

(رواية)

» اسم الكتاب: **الساكنان لا يلتقيان.**
» اسم المؤلف: **كنان فواز حمَّاد.**
» الترقيم الدولي: ISBN: **978-9933-567-59-0**
» الناشر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**
» سنة الطباعة: **2021.**

طبعة مشتركة الحقوق بين المؤلف والناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل
للنشر والدراسات والترجمة
هاتف: 00963115618956
00963115637060
aklpublishing@gmail.com

البريد الإلكتروني للمؤلف:
Kenanseismec@yahoo.com

- توطئة -

في خضم الحكاية، وكل هذا الاحتراق في زمن الحرب، أعود إليك أيّها الورق بطهرك، وعريك، وسطوتك المعهودة معلناً استسلامي أمام شهوة جسدك النقي المغري في نثر حبري اللامع على جلد كيانك، لأنفض غبار اللهفة بالكلمات، وأشرع بارتواء اللّذة من كأس وجودك.

سأسقي اليوم مفرداتي بماء الذاكرة، وأطلق للحروف عنانها في سكون الليل، فالورق لا يسكر إلّا بنبيذ الليل، وسواده، والأفكار لا تزورنا قبيل قدومه، والحبر لا يستوطن ثنايا الورق إلّا ليلاً، يأبى السقوط والانحناء، والتّماهي في ضوء النهار.

تلك العلاقة الودّية بين الحبر، والورق، كالأنثى تصبح أجمل برفقة رجل، يحنو عليها، ويسقيها من دم قلبه الطاهر، ويستبيح جسدها عنوةً برضىً مكابر، ورغبة حتمية عنوانها الصمت في حضرة الحب.

تكمن المقاربة في ذلك أن الأدب هو نتاج علاقة الحبر، والورق، فالاقتران بينهما يولِّد الجمال كالأطفال في حياتنا يولدون بعد الحب، ويستمرون بوجوده.

ولأنّ الأدب يجعلنا أفضل، ويضعنا في مواجهة أمام مرآة النفس، وفي مناجاة لروحنا العليا بمونولوج دراميّ يحاكي مشهداً بصرياً لذواتنا في حضور آلة تصوير توثق حالات

الجدل المارّ بنا، وربما تصعده خطوة تلو أخرى، لترقى بنا إلى مستوى وجودي يحثّنا على دفق الكلمات بجرعة أحاسيس عالية التأثير، تنبعث موسيقا الفكر لوحةً معلقة على جدار الوقت، تضفي أرواحاً على روحنا السكرى كأنها أيدٍ تدفعنا إلى رسم الكلمات بمعنويات راقية قوية تمانع التوقف، ومحو الكلام حتى تكتمل الحكاية.

أيُّ ذاكرةٍ موجعة تلك التي أحمل؟!!

ذاكرةٍ محشوة بالخيبات، وأشلاء فرح متطاير، كل ذلك المخزون من اللّهفة، والعشق اللامنتهي على أرصفة دمشق، تلك الحديقة الشاهدة على لحظات توقفت، وتجمدت في خضم شوارع الأيام، بتُّ فيها غارقاً، حالماً متيماً، والأهم من ذلك أني كنت مجنوناً، الجنون المعلّق على أسراب الحمام، المتكئ على حافة الحلم، الجاثم فوق صدر الزمن بخفّة الفَرَاش الهائم في ذرّات الضوء الساهر.

أيُّ حماقة كانت، أو ربما اليقين، لا أدري..!!!

أيُّ ألم تحمّلْتُ حين رَحَلَتْ، الرحيل غير المعلن صراحةً، ربما هو هروب من الحتمية، حين يكون الحب بين يديك، تحت ناظريك، على بعد من الحقيقة وأنت لا تدركها.

لقد عجزْتَ عن الإمساك بأنامل الأنوثة، والواقع... هل كان الحبّ أقوى منّي؟؟

ليكون على هيئة طيفٍ، تراه، وتشعر به، وتحتضنه، ولكنّك تخشى أن تشعل فتيله بعد تلك الورود المتقدة، والجمال في عينيها، ومقدار اللهفة، والشوق الكامن في سلوكي الطفولي.

هي النار طالعتها على مسافة من الرغبة، ربما هي مسافة الأمان من الاحتراق بعبير أنثى في العقد الثاني من العمر...

لم أفكّر، وأدرك بأن أستدرجها، وأوقع بها في فخّ الشهوة – حبّاً – كانت جميلة كلذّةٍ، ونشوة، بأناها المعتلي فوق السحب، وبريقها المضاهي للمعان النجوم، فتاةٌ تشرع ضحكتها حتى يتمزق الصمت، وتحزن بكبرياء مخمليّ، وهي ابنة الحيّ الفقير

التائه في زحمة العشوائيات، لكن بأرستقراطية عالية المنسوب، وجمال موجع إلى حدود الليل.

صديقان... يخوضان تجربة طفولية في الحب بقرار غير صادر رسمياً عن هيئة الحبّ العليا المباركة لمثل هذه المشاريع المعنوية.

هل هو الجنون بحدّ ذاته حين تلتقي بالحبّ في موعدٍ مرتب له على حين لهفة، وتتحول البراءة في التعاطي إلى رغبة، وعشق، وملامح حب، واحتراقٍ في لظى عينيها..؟؟!!

للحبّ قيودٌ يفرضها علينا، فالكلام العفوي النابع عن معرفة شخص تطال السنين تصبح في لحظات الحقيقة ضرباً من السخرية واللاوعي.

شرعْتُ بنبش أوراقي من حقيبة سوداء، سال عليها حبر دمي الليلي في زخرفة روحية خالصة على شكل كلمات نثرية، لاعتقادي بأن الكتابة طقسٌ قدسيّ نمارسه بسموّ رفيع، كأننا نكتب حروفنا الأخيرة قبل الموت بقليل، ونؤرّخ لذكرياتنا كي لا تعبث بها تداخلات الزمن والذاكرة، الكتابة الأدبية صلاة الإنسان، وعبادته للحياة، خشوع الروح في حضرة الكلمات، طهارة للنفس من خبث الواقع، ومكره، وهي توثيقٌ تاريخي لحياةٍ من لحمٍ ودم.

هذه الأوراق كتبتها في أعماق الليل، ذلك البحر الكبير الحافل بالاتساع، والغموض، فالوقت يزهر ليلاً، تضيء فيه شمس الأفكار، والمشاعر، أسهر عند عتباته راجياً، ثملاً به ألّا ينتهي.

هو كأسي المضيء خمراً، وحبّاً، وأرقاً، أرشف منها قطرات

الذكرى والحزن والنشوة، تلمّع حوافها صورٌ، وأحلام بتعاسة الوقت، ورتابته، وفي قاعه ألمح نهاية الحكاية، والخلاص، أرجوها ممتلئة كوجع الذكريات، حزينة كقلبي الدافئ، ساهرة كالحبّ لا يخبو إلّا عند الفجر.

نثرتُ فوق طاولتنا كلمات اعتصرتُها من ثمار القلب، طازجة، نقية، صادقة، حاصرتها بالفكر والإحساس، وقد ارتجف صوتي حين تلوتُ على مسامعها شظايا الروح، ونشوة الفؤاد، حيث كانت عيونها تتكلم بصمت، عيونُ طفلة لم تتجاوز الخامسة والعشرين من حريق العمر وحرقته.

أمطرَتْ عيناها بالحقيقة، والضعف، والانكسار، اتكأت برأسها على راحة يدها كأنها تحمل أعباء الزمن بشرودٍ يوحي بالغواية، وهذيانٍ أنثوي يغري بالاحتضان، فأدركتُ حينها بأنها طفلتي البكر، وأنثاي التي طالما سهرتُ في التفكير بها كحلمي الصاحي عند أبواب دمشق. أن تصحو من نومك، بارتعاش المكللين بالهزيمة، والنصر، توقظك مشاعرك، لتتقيأ حروف مأساتك، لتخطّ كلماتٍ من نار روحك الملتهبة، تصفعك ذكريات موشحةٌ برذاذ المطر وطين العمر القاسي المجبول بجفاف النوى، ما هو إلّا داءٌ أصاب صميم ذاتك وهستيريا الروح المعلّقة على شمّاعة الوفاء، والإخلاص لقلبٍ تشظّى لفرط ما نال من لكماتٍ مركَّزة، وندوب علنية جراء ما اقترف من محبّة موجعة.

كم من الأصابع تحتاج لتقضم عرفاناً لكل ما مضى!! ندماً...

هذا الحجم الهائل من الكلمات، كيف له أن يخفي ثقوب اعترافك، ويغفر لك في كل جرّة قلم، ونواح حبرٍ أَلِفْتَ رائحته كخبز الصباح، أدمنتَهُ بلذّةٍ أرستقراطية لا تخلو من ألم المصابين بهوسٍ عاطفيّ مزمن.

أنت من فتح ذراعيه عند أبواب المطر، في ظلِّ سماء ملبَّدة بغيم الروح، من تحتك حجارة الطريق الرمادية تتصدّع قهراً بتعاطفٍ مستحَق، صرخْتَ باسمها، كأنها آخر العابرين في قطار العمر الراحل، توَدِّعُها غيمةً تنسحبُ على مهلٍ، هاربةً بخفّة المسافرين العُزَّل غير المثقلين بحقائب العودة، بتثاقُلٍ مُحكَمٍ، وخُطاً مؤكدة على درب يفضي إلى الفراغ.

أن تضع نفسك في مناظرةٍ جدلية بين عقلك، وروحك، بين قلبك، وهاجسك، باحثاً عن كلماتٍ تستهلّ بها جلسة اعترافك، مفتاح لسانك المُعَطَّل، إرهاصٌ ديناميكيّ لملامح شفتيك، هو جرحٌ تعودُ مجدداً للعبث في هيئته، تلامس ندبته، تحركها، لفرط رغبتك بنزيفٍ كارثي يشوب شفاه قلبك الدامي، راضياً بالقادم، مُسَلِّماً بنتائج ما يحصل بعد الكتمان.

لأوّل مرّة عرفتها منذ تسع سنوات، شعرتُ بضعفها، وبأن الكلمات جرَحَتْ قلبها بعذوبة راقية لامسَتْ المناطق الخفية في دهاليز الروح، وكم تمنّيت أن تتكلم حينها لكن صمتها، وملامح وجهها كانت أجمل بكثير من حروفٍ تكسر إيقاع الوقت، وبضع كلمات تهدم بها هرم مشاعري.

كانت صورة وجهها ترسم لوحةً تشكيلية لن تمحى عن جدار البال يوماً، بابتسامتها الملكية المتعالية المستخفّة بالقدر والحياة،

لقد مارسَتْ الحياة بكل أشكالها، هي الأنثى الممسكة بخيوط الزمن، المجازفة بسنوات العمر، العابثة بالقلوب الملتهبة، المتيقّنة من سخرية الكون، الحالمة بالخلاص، المتمردة على مملكتها، الثورية في آرائها الحادة، الجميلة في كل الخراب المنتظر.

وأنا العصفور السجين في زنزانة وجودها، المتخبط شوقاً للإمساك بشغاف قلبها الساديّ، المترقب لقمح يديها ألثمه شغفاً، وجوعاً، المتكئ على طائرة تقلّه بعد شهور إلى بلدٍ آخر، ليكمل مشوار العمر، ضارباً عرض الحائط بطموحه في الوصول إلى مراحل دراسيَّة عليا، لأنها كانت أهم مشاريعه المستقبلية كحُبٍّ أبدي صارخ علني، بعد أن خطط لحياتهما قبل سفره، مستعداً لإتمام كل ما يخص وجودهما معاً في ظل شجرة العلاقات الإنسانية.

كان حلماً أكبر بكثير من حجم الحقيقة الوقحة، تكلَّلَتْ بالخذلان والانكسار بعد أن شعر بأنه قد تلقى أكبر هزيمة على يد القدر في تاريخه التائه.

حشَدَتْ عواطفها، وهواجسها وأحلامها بعيداً عن منأى علاقتنا، فالغموض، والهروب يكتنفان ملامح قلبها، والحيرة، والصمت يشرِّدان خطوات أيامنا إلى مفترق الرحيل.

في عينيها يموت الربيع، ويحيا، تنحني الألوان، وتزهو، تولد نجوم، وتضيء فضاءات من حزن، واستفهام.

شعرْتُ بامتلاكها، برغبة في احتضانها، بحبٍّ كبير كأني طفلها، يعتريني السكون، تمجّدني الحياة...

قربها أمسكتُ بالحلم، شربتُ الضوء فرحاً، مزَّقْتُ الهواء

تنهداً، لمعت عيناي نشوةً، واحتراقاً، تلك اللحظة يفيضُ فيها أجمل ما في النفس بهيئة بريق هو ماء الفرح الخالص، إكسير الحياة، شهدُ الروح ورحيقها.

تنسى كل شيء، يضمحلّ الوقت، وتمحى عقارب الساعة من ذهن الوجود، تصبح أنت ملك الزمان، شهريار الحكاية، عاشقاً ملعوناً بلعنة الحبّ المقدس، المعمَّد بعطر مدينة، المنسي سهواً قبيل الطوفان...

أوصلتُها إلى بيتها، ذلك المنزل المتواضع المعتلي سلماً واحداً عن الطريق، المسجون عنوةً بين عشوائية الزمن، وفوضى البأس العتيق لمنازل منسية أمام حداثة المدن، ورفاهية السكن العصري.

توسّدْتُ جدران الطريق، لثمْتُ تراب زواياه، وصار بيتها دليلي ومقر طمأنينتي ووجهتي التي أقصد، بوصلة الحب، وشراعه، شاطئي المنشود، جزيرتي المرادة، أنا الربان فوق سفينة القلب، أمضي على تقلّب الأمواج، أعبر همَّ البحر، وأشُقُّ عباب حزنه، وملحه، مصغياً لأنين آلامه، مراقباً لوحدته، وحسرته، عابراً لوحشة قلبه، وتمرده.

ربما هو مثلي يحترق بماء روحه الغضَّة، متردّداً بمدّه، وجزره، حالماً بالعذوبة، بنهرٍ جارفٍ يتلاشى به يكسر ملح الفطرة الساكنة في أعماقه، يذوِّبُ جليد المسافة العشقية بين قلبين متعبين، أنهكهما عناء الانتظار، وغربة الآتي.

كنت أحسد ذلك البيت فيما هو عليه، فهو يحتضن حياةً بأكملها لأنثى تكسر قيود الوقت، وتشدو الفرح أغانيَ وأمنيات، هو

الشاهد على سنين استظلّت هي به بمزيجٍ صارخٍ من المشاعر، والسلوك البشري، وانفعالاته، وتفاعله مع الآخرين، تنشَّقَتْ هواءه، وجلسَتْ في زواياه، وعتباته، نامَتْ تحت مظلته، وهو ساهرٌ يراقب تقلبات عمرها المتعب، ومزاجها المحكوم بظروفٍ متتالية لأنثى شرقية تحيا في ذلك الحيّ المتهالك.

تاهت دروبي في ذلك الحي، أطلالٌ أقف عندها بذاكرة معطوبة، وقلبٍ مكسور مشظّى تحمله راحتيّ، كانت المواعيد تعصف بأشجار الروح، وتبعث بها جرعات معنوية تُحييني لمئات السنين، ضمن مقاهي دمشق، المستحدثة من بيتٍ عربيّ قديم تم ترميمه ليصبح ملائماً على هيئة مطعم، ومقهى مزدانٍ ببحرة تراثية النكهة وديكور يجمع بين الماضي والحاضر بروحٍ شرقية تجعلك لا تمل المكوث فيه ما حييت، بنوافذه، وأبوابه القديمة، والنباتات المتسلقة على جدران المكان لتبدو كأشجار باسقة تفيء بظلالها الوارفة، وتخلق بيئة منعشة رطبة في حر الصيف، وتهيئ للجالسين راحةً نفسية تحرض على الحب، والاستمتاع بالتراث الدمشقي العريق.

لقد استثمر الرأسماليون تراث دمشق، وإرثها بشكلٍ نراه إيجابياً بعض الشيء، فتلك البيوت العتيقة الفسيحة ذات الغرف الكثيرة، المتشابهة في الطراز، والشكل، والنموذج، سكنَتْ فيها العوائل الدمشقية، وأنفقت سنوات طوال في الحياة داخلها حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من حضارة شامية جميلة استقطبت كمّاً هائلاً من الغرباء ليدهشوا بمعالم شرقية تمتاز بها دور الشام، ومنازلها، بذلك الفناء الواسع الذي أصبح مساحة للرفاهية

العصرية، والمتعة، ومكاناً للقاءات، والاجتماعات تحت مظلة العشق لدمشق.

اعتمدوا على فكرة التصميم المعماري الهندسي مستندين، ومراهنين على حبِّ الدمشقيين لمدينتهم، وتعلّقهم بها، ثم نجحوا في الحصول على الثناء والمباركة في إنجاز المشاريع الاقتصادية، والناجحة في الارتقاء الحضاري في منطقة دمشق القديمة، وغدَتْ مقاهيهم، ومطاعمهم أماكن عامة محبّبة للجميع تجذب إليها الكثير من الأهالي والعائلات القاطنة بعيداً، وقريباً، والعشّاق في الدرجة الأولى، والأسمى.

إنّها عولمة دمشق، بوجهها المتحضّر، وثوبها البالي الممزّق الذي يراه الكثيرون إرثاً معنوياً ومادياً يجلب الخير، والغرباء لها، ويساهم في تعزيز مكانتها العرقية كأقدم عاصمة مأهولة في التاريخ، ربما تلك نبوءة قبيل ما حصل في عام 2011، وما نتلقى من ارتداداته حتى الآن.

بالفعل لقد أصبحت دمشق المدينة الأكثر تعاسة على وجه البسيطة جمعاء...!!! عادت بنا أو عدنا بها إلى زمن الظلام، والعتمة، إلى ذلك الحقب المسلسل قبل التاريخ الخارج عن تصنيف الحضارات، والممالك، تغيّرت ملامح أبنائها، وشحبت معالمهم، لقد خرجنا عن نطاق الزمن، والحياة، وماتت الأرواح فينا، وأضحت دمشق مدينة القلق والخوف، مقراً رئيسياً للأشباح، والظلمة.

كيف أصبحنا وحيدين في ظل هذا الخراب، والغربة؟!!

لقد تمزّقت أرواحنا ألماً، وقهراً عبر سنين ليست بطويلة،

سنين زرعت فينا الأحزان، والأوهام، والآمال، وأشلاء منثورة من الفرح المؤجّل لم يحن قطافه، وضحكات معلّبة يكسوها الرماد، بداخلنا نارٌ عصيّة على الانخماد، ولهفة شاهقة الارتفاع تطال ضحكة الأطفال أمام روعة الأشياء، وسحرها، ذلك البركان المستعر بالحنين لا يلبث أن يدفق حممه العاطفية فوق سطح الذاكرة، وينثر دخان اليأس، والصمت عند مشارف الأمل المتنهّد حسرة.

وتلك الغصّة صارت ندبة حسّيّة على وجنة القلب الجريح، ترافقنا ما حيينا كظلنا الرمادي، تئنّ حرقةً، وتذرف دموعاً عند أبواب الليل، وعتباته تذكرنا برعشة المقهور بمن رحلوا أو غابوا أو قُتِلوا.

يا إلهي..!! أقولها اليوم.. رجاءً، واستنجاداً، وتعجّباً...

ما هو القربان الذي تنتظره؟؟

ماذا تريد الآن من نفوس احترق ماؤها، وماتت فيها الرغبة، وتقطّعت أوصال الحياة بها في رعايتك...؟؟!!

لماذا كل هذا الشّتات، والفرقة؟؟ لماذا تحاربنا بما نملك، ونريد؟؟!!

ما هو الثمن الكافي للعودة إلى ما كنّا عليه؟؟!! ماذا تريد أن تقول لنا؟!!

لماذا تنثر الحزن، وتزرعه بذوراً في تلك المدينة العجوز؟؟

إنّها دمشق.. تراث العاشقين... حكاية السنين...

تلك المرأة الحسناء المتّكئة على صخر الياسمين.. عذراء الشرق... طمأنينة الشباب... ذاكرة الأيام..

لقد جعلت أبناءها أنصاف حالمين، وأنصاف شعراء، وكتّاب، ومثقفين، أهدتهم الأمل، واليقين، والمستقبل، ووهبوها الحبّ، والكلمات، والغزل، والشوق، هي مدينة متناقضة في امتدادها، ومزاجها، وفرحها، وحزنها، مدينة الاستفهام، والغرابة، هي أمٌ حنون قاسية، هوائية التفكير، مجنونة المُناخ، غريبة الأطوار، تارةً تستيقظ ليلاً لتطمئن على حال أبنائها، وتارةً تغفل عن كل شيء، وتتركهم وحيدين يعانون مشقّة الحياة، وحتمية الوقت الصعب.

لقد خذلتنا وخذلناها، لم تكن وفية صالحة تجاه أولادها، ولم نعرها نحن اهتماماً يوم رحلنا، وحملنا حقائبنا، ثم تركنا الأبواب نصف مغلقة، آملين أن تشفى من علّتها، ولكنها آثرت أن تشقى حتى تكالبت ذئاب الدنيا لتقطع لحم ترابها، وتمزّق ثياب صخورها، وتلامس نيران القدر جسد كيانها.

أعلِنُ اليوم خيانتنا لها، لشوارعها، وأزقتها، وأشجارها، وضحكتها، لقد اغتلنا وجه الحقيقة، وصباحاتٍ بأكملها، وأمسياتٍ طال بها السهر، اعذرينا يا دمشق...

نحن من لفّ حبل المشنقة حول عنق الياسمين... حبّاً...

وخدش بزجاج الفوضى والتخلّي جدران أزقتك العتيقة... قهراً...

وكسرنا سماء وجودك بصخور جبالك المتعالية... حقداً...

من بكى على طرقاتك، وتحت قناطرك، وجلس عند أبوابك برفقة الذكريات، وقصص الحب، مشرّعاً نوافذ قلبه لأي عبير يلوح من أنفاسك...

من مشى متسكّعاً ليلاً وفي فمه أغنيات تشقّ عباب الصمت، متمتماً بفرح الطفولة، حالماً بالغد، مبتهجاً بصباحٍ يطول دون انقطاع، بغيمٍ يحوم فوق سمائه طيراً نستظلّ به، ونأنس رفقةً له...

ماذا فعلتِ بنا يا شام؟؟ وماذا فعلنا بكِ؟؟!!

أيّتها المكابرة العليلة الجاثمة فوق صدورنا كأطفالنا...

ولأنّ الفقراء وحدهم من يمتلكون المشاعر، ليس لديهم سوى عواطفهم المجانية وقلوبهم المحبّة ليصرفوها في عشقك، والإخلاص لكِ، نكتب اليوم عنك بضع كلمات علها تجرح صدر الكون لينزف حبّاً بكِ...

هي اليوم بعيدةٌ جداً، هناك حيث يصبح الإنسان كائناً من روح وبقايا ذكريات لملمها في حقائبه، وسقط منها الكثير فوق رصيف البحر الهائج، ربما حَمَلَتْ معها أوراقها وأحلامها ودخان الماضي العابق بالطموح.

– 1 –

"يا ساقية الأحزان... ارتويت الكثير منذ ارتحلتِ في أعماقي...
أنا شجر الزيتون، والجوز العتيق... خشبي قد احترق بنار شفتيك،
ونسيم عطرك الأزرق..".

حتى هذا اليوم لم أستطع أن أُدرِكَ ماهية الصلة الروحية بيني وبين تلك الأنثى العابرة صدفةً، الحتمية لقاءً، والمؤكّدة حبّاً.

كيف صارت ملامح صورتها مصدر سعادتي، وفرحتي، وصفحة قلبها أروع غواية لنثر الكلمات فوق بياضها، غَدَتْ حكايتي، وروايتي، وأجمل حالة عشقية عشتها يوماً.

حين التقيتها للمرة الأولى، كان العمر غضّاً، والقلب بركة ماء هادئة المظهر، وفي البال حلمٌ بأنثى تنثر العمر وروداً، وتمسك بخيوط الوعد إخلاصاً، تبوح للريح أسراراً مكابرة، سطوراً من جنون بأنامل طفولية، وهمسٍ يعربش على حبال صوتها الفاتن.

في تلك الفسحة المكانية المتاحة لطلبة في إرهاصات العمر الفتيّ، كان الوقت صباحاً، والمكان مليئاً بفوضى البشر، ونظامهم، صيفٌ متعبٌ يجمعنا في مدرسة، صِبيةٌ يعسكرون ترفاً، وعنوةً، ورغبةً، فرصةٌ لمعرفة الآخر بعيداً عن الهدف الأساسي لما نحن فيه، وذلك ضمن هيئة شبابية مشرفة على نشاطات صيفية متنوعة لم نعرها اهتمامنا بالقدر الذي نسعى فيه إلى الخروج من الدائرة الذكورية، وتكوين علاقات خارجها، في مجتمع لم يخلُ من الكبت والحرمان، وقطيعة غير معلنة بين

الجنسين، تجسَّدت في عدم الاختلاط المدرسي بين آدم وحواء.

في بلدةٍ متناقضة، تشرِعُ أبوابها لعصر جديد من الانفتاح، والتطور عند عتبة ألفية جديدة تواكب فيها تغيرات تحصل في الجوار، وتمهّد الطريق لمأساة ستحصل في وقت قريب في العام 2003... غزو العراق...

لم نكن نعلم، أو نتوقّع بحدسنا السياسي أنّ سنوات قليلة ستفصلنا عن أبشع حربٍ حصلت منذ الحرب العالمية الثانية، حربٌ سورية النكهة، بمواجهة بين أهلها، وقوى خارجية المنشأ، داخلية الإرادة، محلية الصنع، اجتمعت كلها لتدير حرباً لا هوادة فيها، قتلَتْ، وشرَّدَت، ونزعَتْ أحلام وطموحات شعبٍ بريء غير مذنب في الوصول إلى السلام، والأمان الأبديين...

سوريا، حلمنا الذي ضاع، عمرنا التائه في دهاليز الشرق، وترهاته، سقطَتْ قلوبنا فدهسناها، سالت الدماء فشربناها...

أنتِ وهي... مأساتي... تشبهينها في انكسارها وجمالها، فرحها وحزنها، غربتها ونكبتها...

بعضُ البلدان تشبه نساء وقعنا في عشقهنّ، في الأمان الذي تمنحنا إياه، والجمال الذي نصبو إليه، حتى في الغربة التي نشعر بها قربهن.

الغربة... هو الشعور الأقوى الذي طالني خلال السنوات التي عرفتك فيها، وكنتُ ملازماً لكِ، ومقرَّباً إلى درجة البعد، لقد اخترقنا قوانين الطبيعة، والحياة، فيزياء المشاعر والعلاقات الإنسانية، فالقرب منها نارٌ جليدية، راحةٌ مقلقة، سعادة شاحبة، وحُبٌّ مهدد بالانهيار.

تعلمْتُ وقتها معنى أن تكون مهزوماً، من دون حرب أو صراع أو حتى منافسة، كيف تخرج من دائرة سطوتها الأنثوية مكسور النّصال، محطّم القلب، منزوع الكلمات، عارياً من أحلامك، وآمالك، يائساً من التقاط الماء – تفاحة قلبها المفعم بالكبرياء، والتمرد – وقلبي آيل للسقوط من شرفة برجها العاجي، اِلتقطَهُ زجاج آنيةٍ انتحرَتْ إلى هاوية المستحيل.

أنا من مشى متهادياً فوق أوتار القلب الواهية بين ضفّتي الحلم، والواقع، مخلّفاً ورائي كل هذه الفوضى والجلبة المصطنعة بفعل الألم المرتجل، لتذبل ورود المعنى هباءً، وتمحى صور الغياب سهواً.

تدوسين قلبي خُطاً إذا ما ارتاحت زاد بها المكرُ، افترشته حجرَ زقاق منسيّ ملَّ من الصبر، وذاق من العمر مرّاً، محنّطٌ هو، مسكونٌ بلعنة القدر، والفرح المؤجّل، نابضٌ بزخّات أملٍ تهطلُ لتزيد العمر عمراً.

أي مأساة زرعتِ بداخلي؟؟!! وقد فات موعد الحصاد البكر...

حين ينكسر المرء أمام مرآة أحلامه، بصدمة شعورية تفوق التصوّر، والتوقّع، يتحوّل إلى كائن مجنون، أو روائي قاصٍ لحكايته، وربما الاثنين معاً، فكل عملٍ أدبي يحمل في طيّاته، وشجونه، جنوناً سكن صاحبه، وأودى به إلى الإدمان الأدبي، وتفريغ فيض النفس، ومشاعرها بهيئة كلمات، وهذا ما يعتبر أفضل ما تخلّفه الانكسارات وأرقى أسلوب نتبنّاه إرادياً بعد العودة إلى الديار موسومين بشعار الفاجعة الكبرى، وروح الهزيمة.

"أيها المحارب القديم... اشرب نخب التلاشي، والفراغ...

لا شيء بقي سوى رمحك المكسور، وملامح طعنات متردّدة تعبُر بزَّتك المتّسخة ثأراً، وسيفٍ لأعناق الزهور سطوةً، وتلك الندبات أوسمة شرفٍ تنازل بها الزمن عمراً، تذكارٌ موجع كلما حدَّقت، هي صورتك فوق صفحة الماء، جراح تسقيها لتكبر، أيُّ حبرٍ ذاك بلون دمك، تغرف منه بريشتك، وتسهر...".

يا للهول..!! أيُّ صليبٍ ترتاحُ فوقه حين تكوي جراح الماضي وتبلسم آلام الزمن... ماذا فعلْتَ؟؟!!

أيُّ مازوخية تمارس بحق ذاتك، لتدخل آلة زمن تستدرج بإيقاع ماكرٍ غيوم المواسم الموارية للثرى؟؟!!

وتلهو بفتيل الانفجار لقصةٍ موارية للذاكرة، مدفونة في تراب الوجدان الغافل.

لماذا تعيد عقارب الساعة إلى زمنٍ مترف بضجيج الفرح؟؟!!

وتنهل من نبع الذكريات سلسبيلاً طازجاً بلون الأغنيات، وحروفاً تنسجها كأنها الثوب الأخير لجسد العمر، وزمهريره، بعد كل هذا السلام الكاذب لصراعٍ بين الوجد، والحقيقة، تشنُّ اليوم عاصفة في صحراء الحاضر لتذري رمال الكيان هبوباً لريح تمخر القلب جرحاً من حنين.

رفقاً بأيامي أيّها الزمن، فأنا أحمل ذاكرتي حطباً على كاهلي، صخراً من ملح، وتجليات، جمالاً مؤلماً حتى الانهيار، صوراً تجمّدت فيها رائحة النشوة، ودماء اللحظة، وحُفِظَتْ أروع أحفورة عاطفية بشرية من صهير الروح المحترقة شوقاً في مقياس التاريخ الشعوري لإنسان معاصرٍ لحقبةٍ كانت هي أحد عناصره الروحية.

لقد استطاع العلماء أن يخترعوا، وينجزوا آلاتهم، ومقاييسهم المادية في الحصول على معطيات وبيانات دقيقة عن كل ما يدور حولنا في هذا الكون المبهم، لكنّهم فشلوا حتى الآن في حساب، وقياس الكميات المعنوية الخاصة بعقل الإنسان وروحه كالحبّ، الفرح، السعادة، اليأس، الحزن، الخوف، والطمأنينة، وعجزوا عن حفظها، وتخزينها، والتقاطها، والتعريف عنها بمادية صريحة، لذا كانت الكلمات الوسيلة الأكثر إفصاحاً عما نشعر به.

فالكلمات تجسّد المعنويات، تمنح للمشاعر كياناً خالصاً صرفاً وتصنع للأحاسيس مادية عضوية تشخصها على شكل مفردات مجسّمة من لحم، ودم، أي تهبها روح المادة النقية بهيئة كينونة واضحة المعالم.

هي شفاعتنا الإلهية، ولسان حالنا في إيجاز ما يدور فينا من هواجس، وأحلام وأفكار... وانكسارات...

ما زلتُ أخشى أن أخطّ سطراً على صفحة رمل البحر المتاخمة لشاطئ عينيكِ، يعصف بها ملح طغيانك جيئة، وذهاباً، بأقدام مياهه الثائرة يمحو حبر تعبي وأنيني، ويصفع صخرة القلب الجاثمة تذكاراً بغضب مزاجي لنسيمٍ عاصف مثقلٍ بعطر مرورك الغسقي.

سنوات غابت عنا، وغبنا عنها، وأصبحْتِ وقتها طيّ النسيان المؤقت، لم أستيقظ فيها يوماً على صوت قلبي يطرق باب ذاكرتي، وكأن الأيام غسلت وجه صباحاتي بندى الحاضر الزاهي.

لقد تآمر الزمن علينا، بديكتاتوريته، وجبروته، وقسوته في إسقاط أوراق خريف التقويم الدوري لسنين مرَّت كشُهبٍ سيَّارة في فضاء الغفلة.

يفاجئنا القدر دائماً بقدرته على خلط، وإعادة ترتيب أوراق أولوياتنا، واعتباراتنا، ليضعنا أمام أنفسنا بمواجهة أحداثٍ جديدة تهطل كرذاذ العمر ربيعاً من زهور، وأحياناً طيناً معنوياً يتراكم في غفلة فوق جدار الحقيقة، ممسكاً بخيوط الأنفاس لعبةً، مخفياً ثقوب الحنين المفتعلة برصاص الضمير العاطفي أطلقه تمرّد الأحاسيس رغبةً.

كانت زخّات حضورها تبلّل جفاف القلب، وتروي ظمأ ذاكرة تعبَتْ بمجاراة الأيام، وأعاصير التقلبات النفسية لشابٍ منتظرٍ فرصة حياة يصبو إليها في عملٍ أو سفرٍ، وحبٍّ عائدٍ من دفتر المذكّرات الشخصية الموشّح بحبر المراهقة الواقعية، بزخمٍ تاريخي ينفض غبار اللهفة، ويرتب أثاث النفس بعد الفوضى الحياتية التائهة في زوايا الأيام.

كغيمة شتاءٍ حميمية الطقس، واهية، رَهِفَة كأجنحة الفراشات المسافرة فرحاً، فتيَّة كالفصول في كل حَول، تأتي في موعدها بحلّتها ذاتها، وكأن الزمن لم يمر بها، ويلمس بأنامله هيئة روحها، وكيانها، نضرةً كعادتها، بضحكتها المغردة سطوةً، ونظرتها المتعالية جمالاً.

على طاولة الوقت، أوقدْتُ نار الذاكرة بحطب الحنين، واللقاء، وتعمدْتُ إشعال فتيل الحكاية المهترئ، سكبتُ أشواقي، وحرقتي، وقود رغبتي، وأمنية اعترافي بذلك الحبّ المدفون

لسنواتٍ عجاف، بذنب عشق وأدَتْهُ أنياب الوقت، ودفنَتهُ في تراب الكتمان.

أيُّ اقتران يكتنف روحينا المضرّجتين بخيبة الإحساس، والأمل...

يا طفلةً تاهت في أروقة الشرق، وأزقة العشوائيات المنكوبة بالفوضى والمعاصرة لكوليرا المشاعر، وترّهات المنطق.

بعد ذلك الصبر، والصمود في مواجهة أزمة حرب لا تُعرف نهايتها، قررَتْ أن تخوض مغامرة كغيرها من أقرانٍ، وأصدقاء، وأفراد مجتمع لم يجد سبيلاً لشقّ هوةٍ في سقف الوطن للخروج منه "هروباً عن سبق إصرار، وتصميم" حين فتح الغرب ذراعيه لعناصر بشرية لا يستهان بها، تشمل كافة طبقات المجتمع السوري، وأشكاله، دون حصر كفاءاته، وقدراته، وقياس منسوب ثروته الأخلاقية، والدينية النابعة من تربية الشرق المتطرف المتخلف، والجاهل لواقعه، والساقط في صهير جارف يودي به إلى جحيم محتم.

لقد أوصدَتْ خلفها باباً لوطنٍ ضاق أبناؤه ذرعاً به إلى حدّ القسوة الجارفة، وطنٌ يجلد أولاده بسوط الواقع، ويذبح أحلامهم، وطموحاتهم بسكينٍ حادّ التخلي، لامع الألم، صارخٍ في نحره لشتلات الأمل المتسلقة على أعناق الفتية.

لا لوم على عصفورةٍ استطاعت أن تستبيح فرصةً للخلاص، أن تطلق جناحيها لريح القرار، والمغامرة، وتعلو لتبعد مسافات شاسعة دون أن تلتفت وتنتشي برفقٍ وخوف بلا حدود، مسكونة بغموض قادم بين الضفتين، ربما ينتظرها أحدٌ ما، ليمسك بأنامل

روحها يراقصها بفالسٍ مترف عند شواطئ الحقيقة، والحلم.

أنتِ... يا وجع القلب الدفين... يا توه الضوء المرتحل غياباً... سفينة العمر التي غرقت قهراً... نجمة انطفأت بيد القدر المشاكس...

في حياة كُلٍّ منّا أنثى، طحنَتْ قمح قلبه، وذَرَتْهُ مع أنفاس الهبوب، زرعت في تراب صدره شوكاً يعربش فوقه قيوداً معنوية تكبّل ذاكرته بسلاسل الماضي، وتحيطه بلعنة عاطفية تكسر جليد أيامه، وتبعثر ذرّات دمه، ومشاعره، ليقيم في محطتين: ماضيه المفقود، وحاضره الموجع.

هي شهابٌ كونيّ فارٌّ من مجرّة أنثوية تضجّ بروح التقليد، ومعاني الشرق، نيزكٌ عابرٌ لغلاف الروح لا يحترق، بسرعة الوقت الذي مضى، يضرب صحراء وجودي ليخلِّف ندبة على صدر الذاكرة.

باتت لسنواتٍ طوال كوناً فسيحاً من الجمال، والحيوية، وعالماً من أغنيات، وأمنيات، لغة أنطِقُ بها صوتاً يتردّد صداه في جوف النفس، وكلماتٍ أنثُرها على رصيف المدينة العتيقة.

مخطئٌ وواهم من يدرجنا في تصنيفٍ ما، أو يضعنا في إطار لعلاقة إنسانية عامة، فالروح دونها مقطّعة الأوصال، والعمر رملٌ محاصر في زجاج الوقت، فوجودها بقعة ضوء مسرحية الهيئة فوق خشبة الحياة، هي البطلة المنفردة بذاتها تنسج دورها الدرامي شالاً صوفياً بيد امرأة عجوز بحرفية قاتلة، وسموّ جارح، بانفعالاتها، وضحكتها الطاغية، تسرق الألوان من زهو الأشياء، من قوس قزح، من زماني الباهت خيبةً، أنا الجالس

في الصف الأخير لمسرحها شاهدٌ على حكاية أمتلكها كأوراقي الزرق، أراقب دمائي النازفة على مذبح التمنّي.

***

كان صيف 2002 زاخراً بالحياة، مضرجاً بلون الحب، بشرارة أشعلَتْها يد القدر، والصدفة في تلك الفسحة.

في حياة الإنسان عامة، تكون أغلب القرارات والأفكار التي يتبنّاها، ويتّخذها بمحض الصدفة، وبرغبة قدرية غير مسبقة التهيؤ، والاستعداد، فجميعنا مسيّرون بريحٍ كونية المنشأ، إلهية التفسير، عبثيّة الوجود، لكنّها منسّقة، ومرتّبة في نتيجتها بحيث تخلق تفاعلاً بشرياً حياتياً متّسقاً بين البشر تسيّرهم في شوارع لم يقرروا السير فيها، وتأخذهم إلى أماكن، وبلدان لم يفكروا بها أبداً، وتمسك بيدهم، وتقودهم إلى أقدارهم القطعية، وهُم تحت تأثير وهن الحياة، وصفعة الواقع الأليم، مجبرين بقوة الطبيعة، وسطوتها.

والذي يحدث هو أن تتقاطع دروبهم في نقطة كونية ما، فيلتقوا، أو تتباعد، فيستحيل عندها اللقاء، وتموت الصدفة، ولكن أشدّ الأمور تعاسة، وبؤساً حين يلتقي البشر ببعضهم، ويتعارفون بعلاقة إنسانية صرفة، لا يشوبها سوء النفس وضعفها، بحيث تكون متيقّناً من عذوبة التعاطي مع الآخر، ودفء نواياه وصفاء قلبه، ثم تحكمك القطيعة، عندها تشعر للحظة أن مشوار العمر سيمضي من دونه، ولن تقودك إليه الطرقات ثانيةً، فتتقلّص حدود الأماكن، وتتّسع مساحة الحنين، والتذكار احتراماً لغيابهم.

بقي حبّي مواراً طيلة السنوات التسع العجاف، مكتنفاً ذاته، ململماً جراحه كفارسٍ مكسور الحسام، موشحاً برمالِ عرقهِ، مبتلاً بخيبة انحساره.

مراهقٌ يحمل ستة عشرة عاماً فوق أكتافه ويمضي نحو حبٍّ لأنثى خضراء القد، بعمر الحريق المفتعل في القلب، وهو ذلك المجوسي العابر لجمر اشتهائها، وهي مشروعه العشقي المحتم، بأعوامها القرينة لعمره، المكتظّة بسحر عشوائي مبهم يفوق لذّة صوتها، وماء بحرها العذب.

في ذلك الوقت، كانت المشاعر أقوى من الكلمات، وأشدّ تأثيراً على النفس، والروح ترتجف برداً عشقياً كامناً في خلاياها، ونار الوجد تلتهم فحم مناجمي المتكسرة في أعماق الشوق.

البوح تردّ السائل خجلاً وحسباناً، حين يصبح الارتجال ضرباً من خيال، وتتكسر حروف اللهفة فوق جبال الشفاه المتزلزلة رهبةً، ويضيع عبير اللغة أسفاً.

احترفتُ الصمت المهادن لتلك البراكين النازفة، لصهير الرغبة الجامحة في أتون العمر، أن تلامس ملامح شيء تتحسسه بأنامل قلبك، متوجّساً، تائهاً، حائراً لعدم امتلاكه، وحيازته كرائحة الأرض بعد هطول المطر، ورذاذ أنوثتها بضحكة مفتعلة عالية الجرعة تدغدغ مسام الفراغ بلهوٍ طفولي البدعة.

مرَّت سحب الزمن، سنواتٌ عبرتنا، نهرٌ يحاذي ضفاف آمالنا وأهوائنا الحياتية، ارتويت من كأس النسيان، وجرار الفقدان المؤجل.

طوانا الغياب، صفحة بالية من كتاب، سمراء متعبة، رثّة

الهيئة، ممزّقة الأطراف، شاحبة الحروف، هشّة القوام، معطّرة بالغفلة، منسيّة أمام ريح النوافذ المشرعة للأوهام.

في تلك الحقبة الزمنية، كانت سماء دمشق مظلتنا الشتائية، وسقفها الحميمي الداكن يجمعنا في ظله غريبين امتهنا حبّاً لمدينة ترقد في كفّ الله، تتكئ على سفوح قاسيون طمأنينة، يهدهد لها ترفاً، ونشوة، يضمها بين ذراعيه الصخريتين الصلبتين بحرص الآباء، وخوفهم، ويحنو عليها برقّة الأمهات الصابرات تضحيةً، وشغفاً بملامح دمشقيّة لا يملّ مطالعتها.

دمشق... ذلك الحبّ الأول، والأوحد لمعالم أنثوية اتخذت شكل بيوت، وشوارع، أزقة، وأروقة، تراث عتيق بحداثة متواضعة التصميم.

أنا القاطن في بلدة مستحدثة ريفية الأصل، والعنوان، تحاذي هيئة المدن الصغرى بمقاربة منطقية، خاصة بعد الزحف الهائل لمواطنين من نواحٍ أخرى خلال الأحداث التي مرت بها سوريا بعد عام 2011، كونها واسعة الأطياف ديموغرافياً – على الرغم أنها غير مهيئة لاستقبال موجة بشرية طاغية ستغير من ملامحها – خلا عن احتضانها للاجئي حرب عراقية مجاورة أبطالها أحفاد العم سام، وثلّة لا بأس بها من طابور خامس عراقي الهوية، ساهم في سحق وجه بلاده، ودهس حضارة بشرية بآلة الغرب الطاحنة، وحذاء جلدي لامع غريب.

دائماً، كان ولائي لتلك المدينة... دمشق... عشقنا السرمدي، منزلنا الجميل حيث نحيا، ونزدهر، كوننا الفسيح المضيء بنجوم ذاكرتنا، حديقتنا الروحية المعمّرة زهواً...

عبرتُ ثناياها، شوارعها، وحدائقها، أزقتها، ومنحنياتها، دهاليزها الخفية، ونقوش القدماء فوق بازلت عراقتها. مدينة الترحال الذهني في صورة وجهها، ذلك الشرود العاطفي في تفاصيل وجودها، منَحَتْ لساكنيها تذكرة تجوالٍ يومي تدفع ثمنها عند أبوابها مجاناً، تخوّلك المضي على أقدامك نحو ذلك اللّغز المحيّر، والأحجية الكونية المزدانة بالحبّ، والكراهية، بالفقر، والبذخ، بالرفاهية، والتقشّف، بالرتابة، والفوضى، بالقِدم، والحداثة، تلك المدينة كل من فيها سائح أبدي يطالع قناطرها، أزقتها، تراثها، كل يوم بإعجاب الملوك، ودهشة الغريب، ومباركة الأنبياء.

لقد أورثَتْ لكافة عشّاقها إرثاً حضارياً موجعاً، تقاسمت قلوبهم محبّتها، واحتلّت هامشاً حسّيّاً مكانياً في ذواتهم يناظر بشكل نديّ مساحة حبّهم لبعضهم، فهي تبارك المحبّة، والمحبين، وتهبهم الأمان العاطفي فوق أرصفتها، ومقاهيها وظلال أشجارها.

أنا المعجب المفتون بغواية دمشق لشبابها، تلك المرأة الطاهرة التي تظهر مفاتن جسدها أمام رغبة الهائمين بها انتماءً، ترفع ثوبها الفضفاض ليلمع عاج ساقيها، شمعاً برحيق الطهر، والعفاف.

هي ليست غانية، لعوباً، بل نحن من شرَّد خصلات شعرها بين لهاث الطامعين، ومزّق ثوبها عنفاً، ليستبيحها الغرباء، وجرح بالفولاذ معصمها لتسيل دماء الضمير.

ما أجمل الرحيل داخلك، والتغلغل في مسام هوائك، وقطاف الياسمين الشاكي عند نوافذك، لثم رمال جدرانك، انحناء قناطرك،

رهبة أوابدك، حجارة الطرقات القديمة المنسقة بتراتب هندسي يوحي بالأصالة، وصوت إيقاع فيزيائي المعنى في قرع حذوات الخيول، إشباعٌ هيستيري لشهوة الذاكرة بالتجلي بروح الأسلاف الغابرين.

في رحلة تجوالنا على أرصفة دمشق، وأروقتها، تعصف بنا حالة عشقية لعالم دمشقي أمومي الارتباط، تدفعنا إلى التماهي، والانسجام، والاندفاع بالانتماء لحزبٍ أخلاقي أصيل يجمع عناصر بشرية تكنُّ الولاء، والإخلاص، والوفاء، والمحبّة، والتبعية المجنونة العمياء حبّاً للسيف الدمشقيّ الرمز الأكثر اختصاراً لمدينة شهدَتْ عصوراً، وأجيالاً من تاريخ الوجود، بخطٍّ بياني متذبذب من التحوّلات، والأحداث، والوقائع، لتنهض مراراً، وتكراراً من جحيم الكارثة، وتنفض عنها غبار الهزيمة، محارباً تجمّله مسارات الدماء على جسده، وندبات الأهوال المرابطة له على مرّ الأيام.

لقد علمَتْنا الصبر على الآلام، والمكابرة على الجراح، وكذلك الصمود في وجه التاريخ، وتقلباته، أهدتنا الحياة، والحبّ، والأمل...

كان تسكّعي فيها، ترفاً حضارياً جمالياً لشاب يخزن في باله صوراً، ومشاهد أرشيفية لحياة مدينة تضجّ بالعراقة، والفتنة، ورائحة الشرق.

تأمّلتها بعمق، بكافة حواسي، برغبة عارمة في الاحتضان، بخشية عليها من دوائر الزمن، ومزاجه.

كان همّي في كيفية تقليص تلك المساحات الشاسعة،

والأماكن الكثيرة متغلباً على منطقية المادة، وواقعية الأشياء في عناقها مرةً واحدةً ككُلٍّ مُجتَمِع بين يدي!!!

كنتُ أطالعها بشغف في كل مشوار تقودني فيه قدماي، بلا وعي على شكل مسارات عشوائية، تمكّنني من العبور داخل الأحياء والقطاعات السكنية، تلك النظرات الحسّيّة الكامنة يتخللها وداع غير علني، دائماً شعرت بأنني في حالة طقسية معتادة على الفراق، وأنّ ثمّة طائرة ستبعدني عنها... سيكللني الغياب...

كنت على يقين بأن حالة اللاإشباع والنّهم العاطفي تجاه شيء ما، ستنبئ بدنوّ الموعد للرحيل عنه... وربما فقدانه.

ذلك الرحيل الأكثر إيلاماً، وقسوة، المهيّئ لوداعٍ قسري، لحياة شهدتها دمشق، وحكاية حبّ ملغّم بعواطف طائشة غير محسوبة، ببارود الذكرى المشتعل، بقصة معطوبة الكمال، كسيحة الأمل.

حين يُفرغ القدر رصاصة الرحمة الأخيرة في صميم قلوب تنبض بإرهاصات عاطفية محاكة بخيوط الأمل الواهية، ويسقط القلب في جوف الروح حجراً صوّانيّ التكوين ذا أنفاس حارقة، وتنهّدات خاوية تملأ صمت المكان.

تدور رحى الأيام، وما زال الغياب يتوّج حضورنا، والوقت يحيك مؤامرة ضدنا، تعذّر اللقاء، ولو صدفة، في ذلك الحي البائس، وتلك البلدة المجنونة، لم تتقاطع مسارات دروبنا خلال السنوات السابقة للفاجعة.

ظننت وقتها أني شفيت من إدمانها الموجع، وأن الذاكرة تتقن النسيان...!!!!

فالبعد المكانيّ والزمانيّ القسريين يطهران القلوب من آلامها ويبلسمان جرحاً عشقياً بنوى النفوس المحطّمة، ويصعقانها بكهرباء الواقع لتصحو من غفلتها، وتعلن هدنة شعورية... حتى إشعار آخر...

ربما أمضيتُ تلك الفترة في وداع دمشق أرمقها بحزنٍ مفعم بالآتي، شعورٌ بالتخلي في لحظات جارحة، مدركٌ غير متيقن لما هو قادم، مصابٌ بنكسة الفراق المؤجل، مؤمن بقدوم تذكرة سفر في وقت ما، تتيح لي الغروب عن وجه أرضها، وتمنحني مقعداً بجوار نافذة تشرف على سماء الماضي... على دنيا أوجاعي.

أتهادى بخطاً صابرة، مثقلاً بهموم الشباب، مزداناً بصفاءٍ روحي، بحياةٍ تعبث بداخلي، تضيء قناديل العمر، وزهوته في كنف دمشق.

حقيبةٌ مشنوقة العنق على كتفي، خبأتُ فيها ورود الكلمات، وجمَعْتُ رحيق الصباحات الشامية، وطقوس أيامٍ محنّطة في مَخدَع البال تؤنس وحدتي الدائمة، أرشيف زماني، وجعبة الأمنيات.

(باب توما – حي القيمرية) معبر الآمال خاصتي، أهو ابتكارٌ قدري لاستقطاب أجيالٍ من العاشقين، ومنحهم جواز مرور عبره، ليضمنوا شرعيّة حبّهم واستمرارية طقوسهم اليومية في السعي نحو الكمال العاطفي، وإنجاز مشروعهم الدرامي ضمن أزقة ومقاهٍ تهب عمراً من الاستقرار النفسي.

أيتوجب على الفارّين حبّاً، والهاربين نحو حتفهم المؤكد أن يعبروا ذلك الباب قرباناً، أو يطوفوا حول شمسه أضحيةً؟؟؟

هو المحاذي لشهوة القلوب، الكامن في خلايا المواعيد، المشاطر للقمتنا العاطفية من خبز، ودموع، مكتنفاً لذلك الحي كمسرح علني للحبّ، ووطنٍ رسميّ لفئةٍ تضع الياسمين وساماً على صدرها، تتعطّر برائحة أزقته شغفاً، تحترف التسكّع في زواريبه راحةً، وعلاجاً.

ساحة علنية في باب توما، تتفرّع منها شوارعُ، وأزقة، وأسواق، كلها شهدت على خطا ذكريات منزوعة الفتيل، صلبة التأثير، عصيّة على النسيان، تشتعل حريقاً نفسياً مع أول طيف يهطل اقتراباً من مسرح الحكاية، لكن شارعاً واحداً محفوفاً بعطر الألم المعطوب انكساراً يفوح برائحة الصورة، والوجوه الآتية من طريق قديمٍ معبّدٍ بحجارة متعالية توحي بالصعود قليلاً، لتنعطف يميناً، وتضيق المساحات، وتمتد المسافات، رِواقاً حميمي الطّلعة، بهيّ القِدَم، فقير الحداثة، غنيّ الأصالة، يطرق باب العمر المرصود لأدخله – أنا – بشوق العابرين فيه، برغبةٍ جاذبة تؤسس أحداثاً، ووقائع، وحياة، بهوسٍ روائيّ، ووسواسٍ عاطفيّ على أثر عدوى المكان، وسحره الغامض في قدرته على إشعال سنواتٍ بأكملها بكبريت الأنوثة، وحطب المواعيد.

في حيّ القيمرية يفتح الله أبواب عرشه لتدخله أنت إلهاً، تحملك غيوم الروح بخفّة فراشة ربيعية ضاحكة تغازل هواء الزواريب العتيق، تجتاحُ مشروع عشق غيبيّ بفرحة الأطفال، بصباحات نديَّة توجز الحياة بفنجان قهوة، مشرف على بحرة شامية معطاءة، نبع حنين إلى كل شيء، تشتاق إلى اللحظة نفسها، إلى مستقبل مفعم بالتفاصيل، والأمل، برائحة الله الساكن

فينا، بعمرٍ كصباحٍ تعيشه في كنفها.

هنالك صوت الفيروز يعانق الكون، يصنع حياةً لإنسان مقفل الإحساس، تدمع جدران المقهى لعذوبته، تمتد للأشجار أذرعٌ تلوح بالسلام، ويصبح الهواء أنقى، والماء أصفى، والعمر طفلاً يلهو في ذلك المنزل الشامي العريق، يتسع المكان أميالاً، وتصغر الدنيا بما فيها، يحضر طيفُكِ ليجلس أمامي على كرسي خشبي...

وهل من عذاب أجمل تمنحك إياه أهواء المدينة؟؟!!

كيف لا يمتزج سكون قهوتي، واستقرارها، بقطرات دموع رجولية تقطر من جليد القلب، وحرقته، هي فيضُ نهر الذكريات الجارف لصخور القهر، والألم المبشِّر بغصّة نوستالجيّة تترك آثارها فوق لوحة العيون الذابلة، لأبصر ضبابيّة المحيط حولي بألمٍ دراميّ الهيئة ينخر عظام الذاكرة، ويكتم أنفاس التنهد خشيةً.

أيُّ جدلية تلك التي تُوقِعُك بها ملهاة الحياة، ومأساتها؟؟!!!

عشقٌ مكاني لطقوس مدينة تتربّص بأفكارك، وماضيك، ومستقبلك لتنصب لك كميناً محكم المشاعر، وأنت في طريقك إليها، مجرّداً من سلاح ذاتك، مستسلماً لريح صباحية تقذف بك نحو حقل ألغام أنثى مدجّجة بالحبّ والجمال.

أجمع أشيائي من على طاولة المقهى، وأنتزع حقيبتي المشنوقة على كرسي يجاورني، دون أن ألتفت، بمكر الراحلين، وحرقة الهروب من مكانٍ يصفع وجه ذاكرتي بأيدٍ من حديد، وأنامل من نار.

في حارات دمشق القديمة، تتمدّد المشاعر، وتتضخّم كمجرة تائهة في هذا الكون الرحب، يصبح الإحساس مضاعفاً، والحنين حريقاً مستعراً في خشب الحاضر، يوقد أياماً تختبئ في ظلّ العمر، ويعصر تفاحة القلب خمراً للبوح ودواءً للنسيان.

موسيقا الأعماق ترافقني، بقايا ما حملتهُ النفس من ذلك المقهى الدمشقي، شيءٌ صوفي النكهة، ملطّخٌ ببخور كنائسي مسافر في فراغ الحجرات، ومسامات الخشب المعتّق بأنفاس من رحلوا، ولمسات العشّاق، والأصدقاء، روّاد الأماكن المعتلية أدراجاً فوق شعبيّة العوامّ.

تمضي وحيداً مستنداً إلى ظلّك المكسور عنوةً، مفخّخاً بحشوة عشقية ملتصقة في البال، بمؤقّت زمني لحدوث كارثةٍ، تفضي إلى دمار ماضٍ لن يتكرر، وحاضرٍ مقيد بمستقبل مبهم، لا حدود لعواقبه.

تشتهي الجلوس على قارعة الطريق مرتكزاً على حائط طيني قديم، تنثر أحزانك، تعرضها للبيع، تتسوّل الفرح، وربما تشتري حكاية ً بلا ألم، بلا أعصاب، متخلياً عن ذلك الوخز الأنثوي المؤلم لقلب ينبض بالحبّ الخالص، بوفاءٍ معلنٍ كشراع سفينة تبحر في عباب الماضي.

تشحذُ عواطف المارة، وشفقتهم، أنتَ الشاحب المقهور، المحطّم بمطرقة الواقع المؤسف، المتراكم كصخور الملح، بذرات ساقطة من بحر خسارتك، المستقرّة في قاع هزيمتك، بعد مدٍّ، وجزرٍ فوق شواطئ عواطفك، وأثر الرمال لكلماتك عند أقدام الحقيقة.

إنّها الهزيمة الكبرى داخل سور دمشق، خسارة روحية تضاهي فقدان الحواس، والأعضاء، وليالي السهر الجميلة.

إنّها نكبة حياتية لإنسانٍ يخطُّ مشاعره فوق منديل ورقي بعباراتٍ مختصرة توحي بالاستثناء، وبطفرة شعورية لقلبٍ طازج مغمور بعذوبة إنسانية، وإيثارٍ معنوي قلَّ نظيره.

أهي نبوءةٌ بأن العبارات المنثورة فوق منديل ستخلف وراءها نهاية مؤسفة مصيرها سلة المهملات؟؟!!!!

هي سخرية القدر، وخذلانه، ورغبته في القضاء على مشروع عشقي، وزجّه في زنزانة الضلوع تعسّفاً وإلى الأبد.

ربما هو الوهم... أهي مدينة تمنحنا الأوهام في كل شيء، تغدق علينا الأحلام، والكوابيس بكرم الملوك، وهاجس الغيوم في الهطول... لا شيء يرمّم آثار الخراب النفسي، وتبعات الزلزال سوى تفاصيل دمشق، ومزاجها المكابر.

أنا العالق بين جداري صدعٍ يباعد المسافات بيننا، ويزحزح موقع القلب عنفاً، ما زال عشقي لها حكايةً أرويها لنفسي عند عتبات الليل، وسواده هي المواساة الحقيقية، والبلسم الطبيعي لقلب عاشقٍ لملمَ زجاجه المحطّم من زوايا الدروب، والأماكن، ومضى حاملاً أشلاء روحه بخطاً مثقلة تسوقها رغبته في مناجاة الماضي، ومواجهة خيباته، والوقوف عند أطلال الأحداث بألمٍ مكبوتٍ.

تحيطك الأزقة العتيقة بهالةٍ شعورية، ترفعك درجات روحية، تسمو بك إلى فراغ مليء بزخم شرقي يقودك إلى الجانب المختبئ من هواجس النفس، وزواياها المظلمة، لتضيء أركانها بإشراقة الزهو المتعالي، وسكرة البال بخمر النشوة.

في مقهى شعبي يدعى (النوفرة) المشرِف على سُلَّمٍ حجري واسع يقودك إلى البوابة الجانبية للجامع الأموي، المتصدرة لنهاية طريقٍ متفرعٍ من طرقات حي القيمرية، يتربع لعشرات السنين، ليحتل أيام الدمشقيين كمَعلَمٍ أساسي للأصالة، والتراث، ولراحة النفس، وشرودها في دهاليز الحياة وأنوائها، بروّاده العجزة والمسنين، بشيبهم، وهمومهم، بنظاراتهم الثخينة، وعصوات خشبية يتكئون عليها سنداً لهم في مراحل العمر الختامية، بضحكاتهم، وحزنهم، بتجاعيد الزمن الأثرية الموسومة على جسد انحنى بتراكم الأيام، وشقاء النفس، بقصصهم، وحكاياتهم الدفينة، والمكررة، وذاكرة لا تحمل سوى حسرة القلوب، وندمٍ صريح على ما اقترفوا من حياة...!!

وتجلس أنتَ، عند كرسي، وطاولة صغيرة دائرية، روحها الخشب بحلة معدنية، في بهوٍ خارجي هو الجزء الأكثر نشاطاً، وحركة، يحتله الزبائن بمختلف أعمارهم، ليشرف على بوابة الأموي علواً، ومتاجر لتحف شرقية نحاسية، وصدفية، وحُليٍّ من الفضة.

إن اختيار العامة للجلوس في ذلك البهو ما هو إلّا نتيجة رغبة عارمة في جلسة صفاء صامتة، يتوّجها شرود ذهني مطلّ على شرفة أرضية دمشقية الطابع، مطلقاً العنان لضوء قلبك، وعواطفك في التجوال عمقاً، حيث تكمن تحوّلات الوجدان، وأفكار الحسبان، ومرابع الروح بذاكرة معطوبة الجمال، مكانية الحضور.

كان صوت (أم كلثوم) يجمّلُ الهذيان بنشوة شعورية سكرى بصور الماضي، بصوفية طربية محلّقة في عالمٍ لا نراه، ووجودٍ غير ماديّ، بإيقاعٍ كموج البحر يتهادى جيئةً، وذهاباً عاصفاً

بصخور الإحساس، معريَّاً لشواطئ الحاضر، مؤجّجاً لصهارة دمك المتصاعد دمعاً، مهذباً لشواذ إنسانيتك، محدِثَاً لذلك الخراب الجميل في كيان وجودك.

برفقة دخان نرجيلة تأتي من الجوار، وصوت أحجار النرد تصدح ليلاً، إعلانُ بداية لعبة قدرية من خشبٍ وروح...

أهي يد القدر من رمَتْ نرد لعبتي العاطفية فوق طاولة القلب، لتستقرّ عشوائيته على وجه لعنتي المرقّمة بالفراق...؟؟!!

تلك العلاقة المحكومة بالإعدام عشقاً، وشنقاً بحبل النصيب واللااكتمال، أفكّر كيف مرّت السنوات في عهدها، هي من طعنَتْ الروح بخنجرٍ طفولي عن غير قصد!!! لتسيل دماء المشاعر للمرّة الأولى بسحر الواقعة، وغرابة الحدث، أنا من وضعت نفسي تحت مظلتها، عبداً لأنوثتها، ورِقَّاً وضيعاً في سوق النسيان.

في ذلك الجوّ الصوفيّ لمقهى يشاطرني ألماً عتيقاً، وخشباً روحياً مشوّه الهيئة، كأنه ضلوع الجسد المتكسّرة قِدَماً.

لا أفكّر إلّا بها، قاتلةً صامتة، دسّت لي السّمّ الأنثوي في رحيق أنفاسها، لألثمه ترياقاً شافياً، ماء حياتي، وخمر كلماتي.

فكّرتُ فيها، كلعنة دمشقيّة، تحرق أنامل كل من يقربها، ناراً من شهد الإغواء تلتهمك لتغدو رماداً، لا رجوع بعده.

يكاد لا يزورني الملل هناك، أنا من أختار أماكني بانتقائية عالية المستوى تضاهي حجم الفاجعات المخضّبة لألوان الحياة، تليق بكمّ النكبات المؤرخة في تقويم الأيام، تُشَرّفُ ذاكرة مطلّة على بحر من الخسائر.

حتى وأنت في أسوأ حالاتك، عليك أن تدلّل ذاكرتك، وتمنحها موقعاً مهماً لاستذكار ما حصل، ومراجعته، كي تساعدك في حصر، وتعداد جُلِّ الخيبات وتأريخها، أن تهبها متعة التذكر على أرض معركة كان لك فيها صولات، وجولات في أندلس ماضيك.

كونك شرقي اللعنة، فلا بدّ أن تتأقلم مع كل النكسات، والهزائم الموجعة، وتعتاد دورية الأحزان، واجترارها، عليك أن تحتمل ألم الفقدان، وفاجعة الغياب، نحن من خسرنا مواقفنا، وهيبتنا، وأضعنا الجزء الأهم من هامش إنسانيتنا.

نحن من نستلذّ بأوجاعنا، بساديّة عاطفية، ونرجسيّة مفعمة بالسقوط، نعشق الوقوف عند أطلال الماضي، ورثاء رفات من رحلوا، وتمجيد الأمس بتاريخه، وجغرافيته، بفشله، ونجاحه.

هي فلسفة البيئة الحياتية التي نحياها، بتحوّلاتنا، وتقلباتنا بمازوخية نفسية نحترفها، فطرةٌ كونية لأناس تغلب كفة القلب على قراراتهم صراحة، وعلنية.

نحن من نواظب على جلد ذواتنا، وتعذيبها بأرَقٍ مفتعل، بسلخ الماضي عن أيامه، ولصقه فوق جدار الحاضر بهندوسية طقسية الفعل، شرقية الحدوث.

كفاك احتضاراً بطيئاً، واختصاراً عاجلاً لشريط الذاكرة السينمائي، تستحضر حقبة طوَتْها السنون غفلةً، وتعيد إحياء ذاكرة محتضرة في غرفة إنعاش جسد سقيم بحبّها، ذلك الوهن المعشّش في ثنايا روحٍ اغتربت، وأعلنت رحيلاً مثقلاً بالهزيمة، مجلجلاً بذيول الخيبة إلى مكانٍ مشبع برمال الحضارة، وأكذوبة الارتياح.

– 2 –

"لكلٍّ منّا روايته، خُلاصة تجاربه وهواجسه،
حكاية الوقت الغابر المُطَعَّم بأصداف أحافيره،
المعطَّر برحيق إنسانيته، الموشَّح بألوان صمته".

كنّا مجموعة من الأصدقاء، جمعتهم الصدفة، وفرَّقَتْهُم حياةٌ جامعية فتحَتْ لنا أبواباً جديدة نحو مستقبل مجهول، وطرقات لم نعبرها سابقاً، بأسلوب تخلٍّ غير مقصود بالانشغال عن خبز الصداقة، وملح العشرة.

نحن من تعمّدنا بالإخلاص، والوفاء، والمحبّة، والبراءة، باعَدَنا الزمن المجحف مرّاتٍ متعدّدة، ولكن حبل القلوب ما زال صلباً متيناً قوياً لا تلذعه نار النسيان، ولا تقطعه سيوف المسافات.

ولأن لهيب الطموح لاذعٌ، مضنٍ، شاق، ومؤرق، أردتُ امتلاك الحاضر، والمستقبل بكلتا يدي، في واقعٍ تنضب فيه مياه الحلم، وتتبخر أحلامك وأنت على مقربة من حقيقة شفافة للعيان في التخلي، والمفاضلة بين جودة آمالك، ومرارة أيامك، تهبك إياها بلادٌ لا ترحم، تنزع عنك معطف المجد، وتلبسك ثوب السعي نحو أرنبة أنفك، تفصِلُ قماش جسدك الرّثّ من نسيج الغيوم، وتخفي ثقوب نفسك بكلماتٍ مترامية على قارعة الحلم، تعرّيك من أفكار تحلّق بك إلى فضاءات التطوّر، ومجرات الحضارة، تغرس في صدرك خناجر السّمّ العفويّ!!

لقد أهدتني دمشق الحبّ بسخاء عطائها، وترف عراقتها، وسلبتني إياه غفلةً بمكر اللصوص، وخبثهم، تشعر لوهلة من الزمن بامتلاك قلبٍ ما – كونها أغلى الممتلكات، وأثمنها شعوراً – كنزٌ بهيئة بشر، أنثى غير اعتيادية توسع المساء بأناملها، وينبت الياسمين على رُخام عنقها... كدمشق...

جلسَتْ بينهم ملكةً على عرشها، بحيويتها المعتادة، وروحها الغضّة تفوح ألقاً، وحياةً، هي هبة القدر، ألمٌ لذيذ أصابني مصحوباً بنشوة سكرى توحي بالصدمة المرتقبة.

مقهىً عصري يجمعنا، في حالة درامية تدفعني إلى تجسيد الأحاسيس بالحروف، وبَلوَرَة المشاعر بالكلمات، لأنقش بنزف ذاكرتي حكايةً انطوت لأعوام بين ثنايا العمر، لتعود، وتنفض عنها غبار الذكرى لتحيا كوردة في صحراء الورق.

وقتها.. أيقنْتُ أن الحبّ هو الشيء الأسمى في الوجود، وكيف يوارب نفسه خلف أبواب قلوبنا لسنين طوال، يخفي أثره بكل احترافٍ منظَّم، يتلاشى كضباب الفجر الندي، وغيوم الصيف المؤقتة، ليظهر فجأة من مخدعه، ويعلن عودته بشرعية سلطوية على مملكة الوجدان.

طالعتُهَا بشوق العائدين من الحروب، بلهفة سنين ضاعَتْ بين أصابعنا، حباتُ رملٍ ذراها النوى قسوةً، بشغفٍ مركَّز لعيونٍ ملوَّعة بجمال محيّاها، ونبيذ يقطر دمعاً من لظى شفتيها.

أيُّ عذابٍ يطعنني برماح الوجد، ويصيبني بسهام حضورها؟؟!!

هو الشتاء حينها قادني إليكِ، لأنهل دفئاً حسّيّاً بعد برودة الأحلام والأمنيات في واقعي المؤلم، بذلك المعطف الأسود،

والشال الصوفي خاصتي، ببرجوازية عاطفية توحي بالأمان، والراحة، والاستقرار، وافتقار لحبٍّ متجدّد يرسم خارطتي على رصيف الأمل.

بزخاته، ورذاذه الممطرين، وعطرٍ فطري يهرب من ماضٍ كأنه اليوم، بتثاقل حميم يودي إلى الهذيان، بجرعاته الزائدة عن حدود الشعور، وقهوتي الساهرة في حضرتها... عادَتْ...

"مثل السهم الراجع... من سفر الزمان..." هو الوصف الأكثر تعبيراً حين صدحَتْ فيروز، يخترق شغاف الوقت، ليمزّق خيوط العناكب المعشّشة في زوايا التذكار، وجودها المربك، وطفولتها الحيَّة تجعلك تلوذ بالصمت، والحيرة لتوصد أبواب الحوار خشية سقوط الكلمات في مستنقع الفوضى، ويكون الكلام جميلاً موزوناً مضاهياً لجمال الموقف، وتعاسته، كم ودْتُ أن أرتب حروفي بانتقائية مهندَسَة كحوارٍ روائي صرف بعيداً عن ضوضاء الأصدقاء، ووجودهم.

مهما حاولنا ترصيع الكلمات بذهب المشاعر، وتنميقها برتابة منتظمة التعبير، وتنسيقها، وإنعاشها بسرعة الشوق، وحنين الذكريات، يبقى البوح في أذن الورق همساً، ونثر ورود الحروف فوق ترابه بخطاً واثقة، وإرواؤه بدم الذاكرة – شغفاً نقترفه عمداً بتهمة الإحساس، وذَنْبِ السهر.

أيّتها الشقية المتعِبَة، المربكة حضوراً وجمالاً، كفاكِ قسوة تقهر القلب، وطعناً لجسد الكلمات عند مذبح اللقاء.

متى تتجمدُ عقارب الساعة بهجةً؟!! ليصبح الزمن لوحةً جميلة منسية على حائط العمر، وتتمنّى ألّا ينتهي المكوث قربها

– دون أن تقربها – أنثى تشعل غابات النفس بجمر محيّاها، ونيران كبريائها، بسرمدية طاغية تعبث بها رائحة قهوتنا الجماعية الساكنة في قاع ذهولي.

لها زهو القهوة في موعد تأخّر سنواتٍ عن موعده... شروداً... بعبيرٍ عتيق متغلغل في شقوق ذاكرة لا تَنْسى، برشفةٍ متباطئة توحي بالاستغناء، مبشرة برحلة عناء، متكاسلة كصباحٍ ساهر، متثاقلة كبدء المشاوير، كموسيقا الوقت الشتائية.

كانت تختبئ بين ذرّات فنجاني، بلذّتها، ومرارها، بحرقتها، ونشوتها، بسوادها، وعذوبتها، باستهلالها، ونهاياتها.

شربتُها هي وقهوتي، بحسرةٍ مؤجلة، وندمٍ قادمٍ غير معلن، بزخم جميلٍ يعانق دخان ارتحالها الإيقاعي في فراغ عميق بيننا.

القهوة... خمر العاشقين... شاهد حكاياتهم... ذلك الطقس الأدبيّ المفتعَل فوق طاولةٍ يجري في خشبها دم محسوس، فنرتقي، ونسمو بأفكارنا وكلماتنا احتراماً لسوادٍ علنيّ يخيّم على هيئتها، وقدسيةٍ مبتَكَرة لأنوثةٍ طعمها الجارح فتنةً، تشعل فتيل القلوب الدامية سهراً، وعشقاً بعد سنوات من الغياب القاتل.

امتَزَجَ عطرها اللاذع برائحة جسد القهوة، فوددت الإمساك بزجاج الهواء الخفي، وعناق كيانه الغامض عذوبةً لأنتشي بفرح الأطفال، وبهجة المدمنين الحالمين بلذّة مزمنة عند حضور الموعد.

الرائحة... سجلٌ أرشيفي لذكرياتنا، ننثر أوراقه حين نتعثّر في أروقة الماضي، بخطاً ساهية عند حدود الحقول المفخّخة بمصيدة أعدّتها أنثى عن غير قصد.

تلك الأنثى المحاطة بألغام الفتنة الجمالية، المحاصَرَة بحرائقَ

ذكورية، تشتعل – أنتَ – أملاً ورغبة في خشب حضورها، تخشى المساس بخيوط شعرها المجنون، وأسلاك روحها المشحونة بالشغف، والحيوية.

هي العصيّة على الوقوع في أفخاخ الرجولة، والممانِعَة بعفوية لمكوثها في ظل شيء مواربةً، والدخول إلى قفص الاستقرار، والهدوء بقصدٍ وإصرار.

كيف لذلك الفنجان أن يحتمل لظى الشفتين؟؟!! ولقهوة عابرة في لهيب جوفها أن تشرع بمرارها، وسوادها الحتميّين...

تلك الشرقية الموشحة بطباع الغجر، وسلوكهم، تتراقص بثوبها الاستعراضي، عارية القدمين، فاتنة اللهفة، شهيّة الالتفات، ماكرة الكلام، عفوية المعنى، تخطو فوق الأعشاب البرية بخلخالها المعلّق حول عنق قدمها، تجسِّد الموسيقا بحركاتٍ إيمائية حارقة، لتشعل الفراغ بأصابعها، وشعرها الهارب من وسادة انسيابها.

لصّة الأيام والمشاعر، تسرقُ بمحيّاها براعم سنيّك بخفّة المحترفين، وشوق العائدين دون أن تسلبك روحك الهائمة بها، كي يتسنّى لها صهر قلبك في بوتقة عمرك الآتي، لتجعلها سبائك ثمينة تحتفظ بها في خزائن مملكتها العاجيّة.

في ذلك المحيط الصاخب، أشعلْتُ فتيل الحوار معها برغبة أزلية، كانت الكلمات تنسج خيالاً، وحلماً، وعالماً من جمال، ومعنى، كأن التاريخ يوثّق حروفنا على صخر الوجدان، وتراثه، صار الحديث أغنيةً، والهمس لحناً، وعيناها أكثر لمعاناً، وألقاً، أضاءت ليلي نجمةً براقة جاثمة على صدر الروح، قمراً ساهراً في سماء الوجود.

وددتُ لو أفرغْتُ المكان من أشيائه، بأناسه، وجماده، وبقينا نرتشف الدنيا بكأس من نبيذ نطلبه، فالغياب جَمَّلَ وجودها، ونَحَتَ بعقارب السنين جسد أنوثتها.

سنواتٍ افترقنا، باعدتنا الشوارع، والطرقات، والساعات دون مبرّر، تُهنا في أزقة الأيام ولم نلتقِ، ثم التقينا بعد سنين، ربما بعد الموعد الحقيقي بدهور، تجمعنا طاولةٌ في مقهى عصري، كان موعدنا الجماعي، لنلملم أوراق الصداقة المتناثرة من شجرة اللقاء.

خرجنا جميعاً في تلك الليلة، ومضينا في طريقنا، نمخرُ عباب الليل، ونكسر برودة الشتاء القارس، مشينا جنباً إلى جنب بحميميّة، وتعاسة الوداع.

شهية هي كالنار تذيب قلب الشتاء، وحرقَته اللاذعة، عانَقَتْ زندي هرباً من وحشة الليل، وبرودته، بقسوة الفارين من خوف، وبرد، لتشعر بدفء... وربما اطمئنان...

تمسكُ المرأة بذراع الرجل بشكل عفوي كونها تبحث عن مقرٍّ للأمان في سيرها بخطوات مهتزَّة، ومرتجفة عند عبورها القَلِق في أماكن موحشة، وذات أرضٍ متعرجة خوفاً من السقوط، لكنّها في عقلها الباطن تبحث عن أحدٍ يسندها، ويحمل معها عبء حُلَّتِها، ويحمي أنوثتها من براثن المجهول.

أحقاً كنتُ لها برّ الأمان، وميناء الرسو عند شاطئ عمرها التائه في دوامة السنين؟؟!!

حين تمسك أنثى بذراع معطفك الشتوي، وتضع يدها الأخرى في جيبك الفارغ إلّا من الشوق، واللهفة، تكون قد زَرَعَتْ وطناً

ما من حنين، وحب في جعبتك، وأغرقَتْهُ بالأحاسيس والدفء، باستقرارٍ مؤقت تتمناه أزلياً، تهدِيكَ أملاً، وأماناً يحتاجه الرجل خبزاً وراحةً مفتعلة بأناملها القادرة على صنع المعجزات.

أهو الحبّ العفوي المحاذي لعتمة الليل، وانعكاسات الأضواء في مياه الطرقات الآسنة، بأنفاسٍ شتائية يكسوها بخار الأفواه الطبيعي بدماثة الطفولة في الإسراع بنفثه دعابةً، ومرحاً...!!!

أيُّ طريق ذلك الذي أناشده ألّا ينتهي، ونحن من تعلمنا أن لكل شيء إذا طال – مكانياً وزمانياً – نهايةٌ قدريّة مؤكّدة تفرضها فلسفة الحياة، وحكمتها.

كيف لهذا الطريق أن يسلك مساراً لانهائيّ الوجود، ربما نحو الغامض، والكامن الخفي، المهم أن يحملنا خارج المألوف، والزمن، وضوابط الواقع.

قلبي... أيّها المتصدّع شوقاً لندى وجنتها، الملهوف حنيناً لرائحة شعرها، المزلزَل تعباً من فرط خطاها.

أيشفعُ لنا ماضٍ بلَّلنَا بماء صوته، أيقظَنَا من غفلة العمر، وسحره، ورمى بنا في أتون صهيره لنلعق ملحَ صبرنا عن جدران عذوبته، لأنقش حروف اسمها فوق جلدي بحديد القدماء رمزاً.

ها هو بيتها على مرمى خطوات مِن تعثُّر أقدامنا لهواً، نداعب وجه الطريق، والساعة تجاوزت الحادية عشرة إلّا حب، بسكونٍ فاضح لا يشوبه سوى قرع أحذيتنا لحجارة الرصيف، همس أنفاسنا، وصفعة ضحكاتنا لوجه الوقت الساهر معنا.

أن توصل أنثى إلى بيتها في ساعة متأخّرة، وفي كل ساعة، ما هو إلّا واجبٌ ذكوري يمليه عليك شرقيٌّ كامنٌ في ذاتك،

وصايةٌ رجولية تقبع تحت مظلتها أنثى ترغب بإلقاء الاهتمام عليها، وإشعارها بأنّها في عهدة رجل يحسن معاملتها وإدارة شؤون مزاجها... مكرها الأنثوي.

صلّيتُ كثيراً ألّا نجتاز المنعطفات والمسافات، كي لا نصل إلى نهاية الدرب الجميل، أن نسير خطواتٍ للأمام تخطفنا خلفاً أميالاً، وأميالاً نحو البعيد، نحو اللاشيء، أن نتوه غفلةً لنضيع في الشوارع، والحارات تسكّعاً، وفرحاً، لتمحى الطرقات، والمنازل، والأشياء بممحاة القدر، ونحترف الضياع، والشرود في دهاليز الفراغ.

نَفدتْ خطواتنا عند المنزل المفعم برائحتها، والمعتم في ظلّ الليل، عند ذلك الباب الحديدي افترقنا، ودّعتُها، والأمل يغزو قلبي، والوحدة تزحف نحوي بخطاً ثابتة تشرع في قتلي بصمتٍ مطبق، ثقيلٍ، عاصفٍ بخيالي أمام باب عتيق.

أدارَتْ ظهرها نصف مواربةٍ، مبتسمة نصف ابتسامة، وأنا بنصف قلب، لاحت لي بأصابعها سلاماً يحمل في بصماته لقاءً بلا موعد، كغيمةٍ مرَّت، قطرة مطر تحضر بلا توقيت، كنسمة صبح تَهِلُّ فرحاً بيوم جديد.

أمطرتني بأحاسيس مالحة، انهالت عليّ بتناقض الأشياء، ومزاجية السلوك وعبثية التصرف، ثمّة ما يدفعني إلى البقاء عنده، عبَرَتْهُ، وفارقتني، روحاً سكنَتْنِي، وهربَتْ، وجهها أعاد لي البهجة كمحاربٍ منزوع السلاح، متعبٍ، منهكٍ من فرط ما حدث، من غياب استمر لسنين، أرجع إليّ الرغبة في الحياة، الفرح، الحبّ، والعبث، لكنّها غرَزَتْ الخناجر في خشب قلبه، وصوَّبت

نارها سهماً يفتح باب الاحتمالات أمام غابة من المشاعر في صدر هواجسي، مشعلاً فتيل أقلامي حبراً على ورق.

أيكونُ الوداع عقاباً إنسانياً على سنواتٍ مضت دونها؟؟!!

ذلك المحتم في علاقاتنا البشرية كقربانٍ نقدّمُهُ لحماً طاهراً قُدَّ من جسد أرواحنا بشجاعة الأبطال، وقوة العظماء، كَفَّارة النسيان، والإهمال دهراً، نضحي به معذرةً، وعفواً من إله الحبّ، والشوق عن تلك الخطيئة المرتكَبَة غفلةً، بخوفٍ من اللاعودة برعشة الغفران.

ثمّة ما يربط بيننا نحن البشر ويجمعنا لنلتقي في شوارع الحياة، وأزقتها، شيء كالمغناطيس، قوة جذبٍ خفية، تُسيّرُ أقدامنا، واتجاهاتنا، لندنو نحو مفارق عبثية، نصطدم عندها بمن نحب، نُصهَرُ به، لنحتل معابر قلبه، ودهاليزه بقسرية عفوية تُفْتَح بها أبواب قلاعه، تُهدَم أسوار مملكته، لتدخل مكلّلاً بمشاعر إنسانية صافية، وتنهل من نبع روحه العليا، وتتفيّأ بظلال حبّه الوارفة.

تلك الكيمياء الروحيّة، تحدث، وتمضي بك كتفاعلٍ غير عكوس، باتجاه واحدٍ هو الآخر، لتختلط ذرّات كيانك بأجزائه، وتتشكل علاقة سحرية التكوين غير قابلة للعزل، والتفكّك، بسرعة الحدوث وحتمية الصيرورة.

تلك الخيوط الخفية الممتدة بين أرواحنا، ذلك الانتماء إلى الآخر والنكران لذاتك، لدرجة أن تتمنّى لو تصير هو، لتدرك ماهيته، وتتغلغل به قاطعاً أميالاً في مساحات فكره، متقمصاً ما هو عليه، ناطقاً بكلامه مقتبساً من خياله، شاهداً على حضوره السرمدي في تفاصيل حكايتك.

"أيّتها النجمة الساهرة في ليل مأساتي، يا شُهُباً مرَّت في فضاء روحي، فارّة من مجرتي العشقية، أيا كوكباً أدور في فلكه بهذيان السكارى بقوّة جذبٍ وجدانية التعبير" .

أنا المجنون الهارب نحو اللاشيء – أنتِ – أعبرُ عمراً من حنين فوق جسر الغياب... وأمضي...

هي غبار الذاكرة الناجم عن ضجيج حوافر خيول هائجة في صحراء البال، عصيةٍ على الترويض، لامبالية بكمّ الخسائر، والفوضى المحيطة بها، عبثية الحركة، شرسة التكوين.

فكّرْتُ بها كثيراً، حتى باتت لا تبارح هواءً أتنشّقهُ، أو حلماً يمرُّ بي، ونبضاً يبوح به قلبي علناً.

كيف لقدرٍ لعين أن يفاجئنا بصدفةٍ مكتوبة على قطرات الشتاء، لنلتقي بعد الغياب، وتخرج هي من دفاتر العمر وسطوره، كلمةً بغير معنى، مبهمة التفسير، بلا نقطٍ، وحروفٍ، كأحجيةٍ، أو لغزٍ منقوش على صلصال عتيقٍ خطَّه الأسلاف الغابرون.

هي فتاة اللاأمان العاطفي، لها طقوسها النفسية، وتحولاتها، وأنواء ذاتها صعبة الرصد، والتقصّي، مهما حاولْتَ أن تلقي بشباك روحك الهائمة بها فوق روحها، ستجد أنها خيوط العنكبوت الهشّة في زاوية منسية داخل بيتك المهجور، طالما زرعتها وردةً في زنزانتي، وقيدتُها بسلاسل العشق والحبّ العارم، لكنّها سرعان ما تهرب متخفيةً نحو نافذةٍ تطلُّ على وادٍ يفضي إلى غابات ضياعٍ كثيفة، ومتاهات جنونية العبور.

أيحقُّ لنا أن نسافر نحو ذاكرتنا، أم هي خيانة غير مشروعة تستوجب عقاباً وحساباً نقرُّ به نحن في محكمة الذات؟، نعلنه

على منبر الضمير لنجلد إحساساً مرَّ بنا يوماً، ونعاقب أنفسنا على إثمٍ اقترفَتْهُ نفوسنا في التذكار، والتجلي.

لقد أتت من ذلك الغيب، حيث وضعها النسيان في أدراجه الخشبية، وأوصد أقفالاً مزيفة لمفاتيحها، ربما تركَهَا نصف مشرعةٍ – قصداً – كي تستطيع الفرار من دوائر الزمن، لتعود، وتضعني أمام مقصلة الحقيقة، ومرآة روحي، ثم تعصف بي رياح ظهورها، تقذفني عند منصّة الاعتراف، وأكون شاهداً على حبٍّ دفن تحت الرمال، وأُصبح أنا المتّهم الأوحد بجريمة شغفٍ عشقيّ، وارتجاع ماضٍ تَاهَ في فضاءات الروح، عاد اليوم بهيئة تراثية المشاعر، أنثوية التفاصيل.

كان عطر حضورها يملأ نسيج المكان، وزواياه الخفية، يشوبه وجود الأصدقاء حولنا – على الرغم من محبّتي لهم، وإخلاصي لذواتهم – لكن بوجود عيونٍ ترصدني، وأنفاسٍ تحاصرني يجعل من الصعب عليَّ أن أتمتّع بزهوها، ونضارتها، وجمال روحها الغضّة، حتى احتمالات التواصل تصبح أقل في ظل فوضى الحديث، وعبثية اللقاء، وتبادل الكلمات.

تمنيتُ ألّا يقاسمني أحدٌ إياها، أو يشاطرني استنشاق رائحة أنوثتها، كوردةٍ في حديقةٍ عامة كانت، وأنا الذي يحب قطف وروده بنفسه، ورعايتها، والعناية بها، ووضعها في مكانها المناسب، والمخصص لها، أزرعها في تربتي الخصبة أو فوق طاولة ذات مزهرية تليقُ بها، وربما فوق أسرَّةٍ أنثرُها لتعربش فوق وسادتي كالياسمين، تعانق خشب الوقت المنتظر لزينتها.

متربصاً بأنوثتها، على بعد خطوتين، كصيَّادٍ يراقب أنواء

فريسته، يرصد هواجسها، وانفعالاتها بهدوءٍ خفيّ، والتزامٍ متواصل.

أنا من أردت نصب أفخاخ عاطفية تُوقِعُ بها، لأرمي شِبَاك محبّتي، وعشقي الممزّقة فوق كيانها الجريح، وأحظى بها صيداً معنوياً يشبع خلايا الروح، ويخمد نيران غريزة الحبّ المفجوع.

حين يضعك القدر أمام حتفك العاطفي، وتكون هي ناراً تجتاح هشيمك لتحرق أحلامك، وعمرك القادم، تطوّق ذاتك بحزامٍ من لهب العمر، وحرقة التمنّي، وأنت ذلك المجوسيّ المغامر، العابر لجمر قلبه، عاري القدمين، سائراً فوق رماد جنونه، ولظى أشلاء نيران لا ترحم.

كانت صورة وجهها تتغلغل في مسام خلاياه، وأصبح محياها مرجِعاً بصرياً للجمال، والحبّ بهيئة حلم طال حدوثه، معلقة على جدران الأزقة والطرقات الحميمية، وفي مقاهٍ جلسا معاً فيها حين احترق الياسمين بين أصابعها، ونزفَتْ دموع الخشب العتيق بالقرب من طاولة للقاء تارةً، والوداع تارةً أخرى.

حين تتعلق بأي شيء يوحي بالجمال، والحيوية، والحياة، تكون قد وجدْتَ ضالتك الروحية، وكينونة إحساسك المجسَّد بهيئة شيء ما، متجلياً بمادية حضارية راقية، حينها تلتقي بمرآة ذاتك المقابلة، بنصفك المفقود فطرةً، بوجهك المعنوي الذي تشاؤه – قوامه أنثى على مسرح حياتك يغلفها الضوء فراشةً ترقص عند مذبحك – يتبعها، يعانقها، لتبدو بحلّةٍ استعراضية مقنَّعة تسرق منك أنظارك اللصوصية المكشوفة، تعرّيكَ من كبريائك المزيَّف أمام إشعاع حضورها.

كيف لك أن تجلس مفضوحاً بوجودك في ذلك المقعد

المتاخم لبريقها، وضوضاء سحرها توشي بالغواية، أنت الصامت طوال سنين، تعصر تفاحة قلبك خمراً تتلذّذ به إكسير حياةٍ مؤقتة، لتعود مجدّداً، وتلملم بقايا روحك التالفة، المعطوبة سكوناً، المحترقة حبّاً بجحيم سطوتها.

عليك أن تختار مكاناً موارباً في ذلك البهو المسرحي، وتمكث في الصف الأخير، كوكباً لا يلبث أن يتبع مساره الكوني في فضائها، مستسلماً لجاذبيتها، لتدور في فلكها، تلك النجمة العشرينية المتألقة في قعر السماء، المسيطرة على الناموس العاطفي لقلبك.

بخطواتٍ رهفة تتلو حكاية الفالس، وعبثية التانغو، وديناميكية السالسا، هي من يحترف الرقص كالسير فوق شواهد ضحاياها، تدوس "بلطفٍ" لتنبت أعشابٌ متمردة، تبزغ من رحم الرخام المنصوب فوق أشلائهم.

أما زلتَ هنا؟؟!! تطالع روحها اللعوب بمشهدية درامية على خشبة مسرحٍ أنيق، تمارس طقوس جنونها، في العبث، والتمرد، والتحرر من زنزانة الجسد، بحرية الهاربين من قسوة الدنيا، المتهكمين من فظاعتها، وحكمتها، تجاربها، وجديَّتها.

سيدة الإيحاء، والإيماء، امرأة الفرح، فتاة تكحِّل عينيها بالحزن وتتربّص بك قراراً قابلاً للطعن بسطوة أحمر شفاهها، بشهوة متعالية عن الغريزة، تسمو بك برجولةٍ مستحقّة تهبك إياها على طبقٍ من ورود قلبها النقي الدامع.

تلك الجدائل توشَّحَتْ بعطرٍ أحفظُه كرائحة المطر، وذلك الكتف المكشوف يبوح بشمع الجسد الملتهب أنوثةً، بخشونة

طفيفة، وامتلاءٍ مكتنز متجانس الهيئة، يدفعك إلى المضي اشتهاءً لامتلاكه طمعاً، وجشعاً بحيوانية حضارية!!!، بذكورية عقلانية في السلوك والحسبان.

لمفاتنها رحيقٌ سريّ لا يدركهُ سوى من قرأ خرائطها، وحفظ عن ظهر حبّ ملامح تكوينها، مسجّلاً في أرشيف ذاكرته معالم محياها، وتضاريس جغرافيتها، تاريخ عبقها المصان بشرف ذاكرة تشتعل بوقودها الأحفوري، المتراكم في صخور الماضي.

هنيئاً لعمرٍ فرَّ هارباً من وحشة غيابها، ومضى مهلوساً مجنوناً باسمها، وفيّاً لقلبها النابض... بالنسيان.

النسيان... أن تَتْرُك ذاكرتك جيفةً مهترئة على قارعة الماضي، دون أن تلتفت... ثم تمضي.

تلك الصور، والمشاعر، والأحداث تطويها يد الأيام، ويغلّفها الزمن، ليضعها في جيبٍ خفيّ لأرشيف عمرك المعلَّق في خزانةٍ مُغبَرَّة ذات بابٍ حديدي مُهمَلٍ، صارخٍ بالصدأ، مقفلٍ عنوةً بمفتاح قرارك، وقسوتك، وهواجس تفكيرك بلا قصد.

كيف ينسى، وهو يجترُّ خبز الماضي ليحيا، يرتوي بمياهه المعطّرة، ليغتال عطشه بجرعاتٍ شعورية تجعله رهن آلة الزمن، تنقلهُ ليتجوَّل في أزقته، كغريبٍ آتٍ من عصر آخر، أكثر حداثة، بأضواء ملونة تحاصره وسط رمادية بصرية تحاكي مأساته، بواقعيةٍ رجعية تعبّر عمّا مرّ به في زخم المدينة العتيقة، وبوح صوتها – هي– بطلةُ حياته، ونشوة قلبه القتيل الموشّح بلمسات أناملها الفحمية فوق بياض أوراقه.

وحدها من عبث بمياه ذاته الراكدة، كطفلةٍ تجلس على

حافة بحيرة هادئة تلهو بعصاً خشبية، لتوقظ دوائر مفتعلة بعفوية روحها، مدارات يسلكها بقوّة جذبها، مسارات خطواته الموجّهة نحوها، دوائر متاهته العشقية، قدرٌ في اللجوء إلى حُبٍّ مالح العذوبة، مقهور الاكتمال، كسيح برصاص العمر، واللهفة المستعجلة، معطوب السلوك بقلبٍ واحد.

أهي من تعمّدَت طهو مشاعره على نارِ أنوثتها؟!!

ربما لتنضج أو تحرقها ترفاً، عقوبةً على التفكير بها، وقصاصاً على جريمة الاقتراب من حدود مملكتها.

أهي من بعثرت رواسب الذاكرة، وأحدثَتْ خللاً في الحتمية الطبيعية لترسُّب الكلمات في بحر جوفها، والتكون البديهي لزيت قلبها في صخور قسوتها؟؟!!

هي منْ أطاحت بقوانين الطبيعة، ودساتيرها، بفعل زلازل روحها، وتضاريس كيانها، كبريت تمردها المشتعل، وحرارة دمها، بحممها البركانية المتدفقة إحساساً، وغزارة ينابيعها المتفجرة أنوثةً.

هو المعلَّق بين صفائحها المتحركة قسراً، المتربع على قمم جبالها الطاعنة برداً، المشرَّد في روابيها، سهولها، هضابها، وأوديتها، في صحراء جفافها المقصود تكبراً، فوق جليد برودها القارس مزاجاً.

ذلك الجيولوجي الحائر في تكوينها، المتعجِّب في تفسيرها، والمندهش لسحرها، العاشق لتفاصيلها، والعاجز عن حلّ ألغازها، وفكّ شيفرة أسرارها الكامنة في أعماقها.

– 3 –

"قلبي يا طائر الفينيق... أيّها الساهي في كل هذا الرماد...
تنفض عنك غبار الذاكرة وتنهض بعد كل الدمار".

الفراغ يملؤه الصمت... أشياءُ زاخرةٌ بالجماد...
ضوءٌ خافتٌ مسلَّطٌ بعبثية، يوحي بالركود، والأطياف...
موسيقا مرتجلة تأتي من مكانٍ منسيّ ببوح مسائي لطيف، ثمّةَ حضورٌ في ذاكرته للكلمات، والصور... ولها...

يخبئ في قلبه هواجس، ونبضاً لا يموت، يشحذُ سيوف أقلامه، ليعبر الليل بسلام، بحبر سهاده وحروفه الفضية الساهرة، والمُشَكَّلة بعاجية قمرية تزور شرفة غرفته المتواضعة بروحٍ معنوية متصاعدة متذبذبة، تترنّح على أدراج سلّمٍ موسيقي برموزه وعلاماته، بسوادها وبياضها، بانحناءاتها، وألغازها، بتصاعدٍ وهبوط متوافق مع نغمة سحرها، بنسيجٍ مبهم للوحةٍ صولفيجية النكهة تبعث على الشعور بالعظمة، والإبداع في التفسير، والإيجاز، والتكوين.

أكانت هي موسيقاه الصامتة في ليله الداكن، تعبره كجازٍ مُترَف يرتحل من بعثرة مقهى دمشقي، يعاقِرُ خمر نشوته في رشف الألم أملاً مازوخياً مضطرباً، ليستعيد حضور الذكرى، ومأساة المواقف، وتجلياتها، هو من تعوّد أن يدلّل مأساته، ويرعاها، ليعيش لحظات ارتجاعية يملكها كأنفاسه المتردّدة حنيناً، بانتظارٍ موجع ليكمل حكايته الورقية بحسرة وغصّة.

ما أقسى هذا الليل، وما أقساكِ...

أن يُدهَس قلبكَ بقدمٍ أنثوية، ناعمة الخشونة، بكعبها الأملس، وأصابعها الممتلئة رغبةً ونكراناً في التخفّي بعد جريمة اقترفَتْها بإرادة المارّين بخطاً ثابتة في المضيّ، والعبور بين ضفاف الوقت وحريقه.

بذلك الطلاء الأحمر فوق رتابة تكوينهم، بغواية قاتلة، وعُريٍّ فاضح، مكلّل بشبقٍ فطريّ غريزيّ ينهشُ قلباً ذكورياً من فرط الكتمان.

ماذا فعلتِ بي؟!! وما أنا فاعلٌ بنفسي؟!!

أأذريها رماداً كرُفاتِ جثةٍ بَارَحَتْ عبق المكان، والرواية؟!!

بيدَ أنّ الذاكرة لا تموت، لا تشوبها نار الطبيعة، وصراخ البراكين، وتبقى تلك الندبة الجميلة على ملامح مرآتك تتغنّى بها، وتندبها، تجمّلُها، وترعاها، تعتني بها، وتناجيها، هي كل ما تبقى لك من حُطام الماضي، وأطلال العمر، وحسرته، تاريخك الحافل بالهزائم، والانتصارات، سنوات قلبك المحارب لنيل شرف الاستشهاد دفاعاً عن لون الكحل في عينيها.

في تلك الغرفة المجنونة، يعاقر ذاكرته خمرٌ سرمديّ، ينازل به وحشة الأيام وقسوتها، وتنبت لأقلامه أذرع من حياة، ولحبره سلاسة الماء في الانسكاب على أوجه الورق.

أدرَكَ أن الكتابة عنها والمرور بها ما هو إلّا إرهاقٌ، وتعذيب للروح التي هامت برحيقها طوال سنوات من الغربة النفسية، وموارباةً خفية لشرخٍ شعوري، وصدعٍ روحي أصاب أرض أحلامه البكر في الحظو بقلبٍ يزيّنه شريط حريري أحمر اللون، بعقدة

آمنة، مُحكَمَة، ترسخ، وتوطّد لعلاقةٍ ودّيّةٍ سامية بينهما.

أيحتفي بالخذلان، والهزيمة؟؟!! ويتوّج خسارته، ويرصّعها بالكلمات.

أن تفقد قلباً، وروحاً قد كللتَهُما بالحبّ والورود، وزَرَعْتَ في أديم عمرك اسمها لينمو، ويزهر ملتفّاً، ومتسلقاً لأدغالك، شائكاً متمرداً، ممسكاً بعنقك، خانقاً لأنفاسك، مطلِقاً لروحك المتبقية عمداً، وإصراراً... عن غير قصد...!!!

في حياتنا عامةً، ثمّة أشياء توجزها، وتهبها معنىً حقيقياً (وجدانياً)، تلوّن لحظاتك إحساساً، وهذياناً، تقذف بك شُهباً خارج حدود المجرَّة، لترى ذاتك الكلية ضمن الناموس الإلهي وتُشهِدُها كجزء أساسي من نظامٍ كونيّ مبرمج يتيح لك تجربة حياة، أنت أحد عناصرها، تضعك على المحكّ بين العقل، والعاطفة، فإذا صرخ الأول بعنفٍ موجعٍ تمزَّق الشعور، وتلاشى كغبار الضوء، أمّا إذا همس الآخر برفقٍ عفوي هشٍّ، تُهْتَ في دهاليز الواقع، والمشاعر، ضعيفاً أمام شلّال الرغبة المتدفق حبّاً، عاجزاً عن مقارعة تيار الانجراف نحو هاوية الغرق شغفاً.

يفكّر هو وتحاصره جدران أربعة... وهي...

بلا سقفٍ يحميه، ويأسره، ليس هنالك سوى مساحةٍ من البياض يطالعها فوقهُ، عديمة النجوم، فضاؤه الهائم، فسحتهُ السماوية بلون حبره المزرق ولوحة ذاكرته المصابة بها.

دمشقيُّ الحلم والوجود، يُرصِّعُ جدران قلبه بحجارتها، وينثر عطرها المُعتَّق فوق مساحات روحه – ترفاً وعشقاً – يلملم الألحان والنغمات من شرفاتها، ويمسح جبين شبابيكها عطفاً،

علَّ أنامله تتشرب الدفء من زجاج إطلالتها ويستمدّ طاقةً عالية من وجدان عراقتها.

هو ذلك المطعون بخناجر دمشقية عاطفية موجعة، بمتتالية قاتلة استباحَتْ دمه النازف فوق أرصفتها، الجاري في أقنية حجرية تصبُّ في مجاري تعاسته، وخيبته الأبدية، بذلك السيف الأموي المزروع في قلب المدينة... وقلبه.

تعوَّد أن يجهّز قهوته قبل أن يبدأ مشواره اليومي في الكتابة – طقساً–، يحتفل بها، يقدّرها، لتضفي معنىً أدبياً لحكايته الثّكلى، ويستمدّ من حبرها الأسود مداداً يعينه على مواصلة الأدب – حرفةً – جرعةً معنوية تستقطب إلهاماً فكرياً يدمغ حروفه نقشاً على نصاعة الورق، وعذريته.

يرشفها على مهلٍ، برويَّةٍ وبطء مفتعل، يعتني بها كأنثى حاضرةٍ شهوةً، برقيّ مخمليّ، وأرستقراطية ملكيَّة، يعِدُّها لفراش الرغبة، بحضورها الداكن باحترامٍ لذيذ النكهة، وسلوكٍ فاتنٍ في معاقرتها، لينتشي بسائلها، وعبير غوايتها.

بكسلٍ مرتجل، وقداسة زخمها العفوي المتغلغل بأعماقنا، ترسم لوحةً على قماش الفنجان، بسوادٍ يبوح بنا على شكل أثر، هو من احتاج إلى قارئة فنجان، ليبحث بين كلماتها، وبصيرتها، ونبوءتها عن ملامحها، علَّ شفاهه وَسَمَتْ صورتها على ذاكرة قهوته، ونسيتها في قاع الاحتمالات.

يملأ فنجانه من جديد، يراقب دخان حرارته، بتصاعُدٍ دراماتيكي مُلفِت يوحي له بالتلاشي، والهذيان بسحر الأشياء، وعذوبتها، بحالةٍ شعورية جيَّاشة تستنهض كلماته المنمقة،

وتُنعِش أفكاراً نائمة في مخدع خياله، تتماهى مع موسيقا تضيء المكان بفرحٍ متثاقل، بتجليَّاتٍ مسرحية، بصرية التأثير، سمعية الإدراك والمعنى تحلّق به خارج حدود اللحظة، هرباً حتمياً من وجودية قدرية جافة حيث هو، لقد استطاع أن يحوّل الغربة المكانية، والزمانية إلى مشروع أدبيّ يتحدّى به رمال الصحراء، وحضارة كاذبة من ملحٍ، وضباب، تنافي حبّه للطبيعة، والواقعية المجردة من الأقنعة العارية من الشوائب، النقية كوجه الصباح الفتيّ.

أعلَنَ ولاءه للحبر، والأوراق، والأدب، لاعتقاده أنه يُجَمِّلُ حياتنا ويضفي عليها رونقاً حسّيّاً ومعنىً وجودياً يتيح له توثيق الأفكار، والهواجس، والاعتقادات، والتجارب، حيث يتحول الشيء اللامادي إلى مادة حياتية تترسخ في ثنايا العمر، وتترك أثراً، وبصمة إنسانية على صخور الثناء، والتقدير، وتقدم فائدة فكرية حيوية للمارّين بها، ليشهدوا تجلّيات وقته، وعصارة زمانه، مخاض أيامه، ليس ذلك سوى ترجمة، وتشخيص المشاعر، وتجسيدها على شاكلة كلماتٍ من نور ونار، حكاية إنسان يُطِلُّ من شرفة الحاضر، ليرمق أطلال ماضٍ، وأنقاض مدينته النفسية، ويَشرُد في ركام انكساراته، في ظلّ ذلك الخراب العتيق.

في كل الأوقات، كان يضيف لها قليلاً من السكر، على عكس ما عُرِف عن ذوي الكتابة، والأدب بعشقهم لقهوةٍ صرفة دون أي إضافات مُرغّبة للأشياء، كما هي بمرارها الفجّ صراحةً، بلا مستحضرات للتجميل، أو منكّهات، أو حتى رتوش، كونهم يلمسون حقيقة كل التفاصيل، ويعيشونها بواقعية جرداء، بوجهة

نظر خاصة، وعزفٍ منفردٍ على أوتار المنطق، والخيال، وتلك الفسحة المكانية في ملاعب الذات.

ربما يهربُ من ذلك الصبر الملوَّع على التحمُّل، لفرط ما نال من علقم سنيّه، ولوعة مذاق الفاجعة التي أفقدَتْهُ القدرة على لثم كل ما هو لا يمتُّ لعذوبة الحواس بِصلة، طارداً ملح الوقت من أوقيانوس رحلته، رواسب الذاكرة المتراكمة منذ الحقبة العمرية لمرورها – هي – ذلك النجم المتحوّل إلى ثقبٍ أسود يبتلع ضوء روحه، ويبعثر وميض عينيه الكالحتين بالحسرة.

ويسأل نفسه: "أتكون المشاعر خطيئةً نرتكبها بعشقٍ غارقٍ في وعينا.."؟!!

هل من الممكن أن نقترف الحبّ جريمة نحاسب عليها في محكمة الواقع؟!!

أنجلد ذاتنا حين نودّع الماضي في غرفة إنعاش سريَّة مكبلاً بسرير الاعتراف، كي لا يفرُّ من مواجهة مرآة الحقيقة المؤلمة لقلبٍ لم يَمُت إلّا بطعنة مسافرة في خاصرة جثمانه.

أصدق شيء في هذه الدنيا... هي الحقيقة... لا شيء سواها...

لن تستطيع إخفاء تلك الندوب الملتصقة في وجه قلبك، ما هي إلّا شواهد حكايةٍ أمطَرَتْ رصاصاً من ياسمين، وسهاماً من حروفٍ نُثِرَتْ أشواكاً على أرضك المقفرة أملاً، لتحظى بعوسج نأيها، وصبَّار نكرانها، وتسقط بعد ظلك دامياً بهزيمتك، مضرَّجاً بحبر أوراقك الخريفية، قتيلاً بنحر كلماتها لشمع عنقك.

يحمل قهوته بيديه، ويستند إلى نافذة تطلّ على شارعٍ فارغٍ إلّا من الوحشة، وعتمة الليل، أبنيةٌ فارعة الارتفاع، توحي بالازدهار الكاذب ترافق أيامه، يسهر معها، ويراقب انسكاب الضوء عليها ليلاً، يشعر بوحدتها، وجفاف الرمل المنثور على فولاذها.

في تلك المدينة التي لا تشبهه، مكان غربته – حيث هو– تُقَدَّر قيمة الحضارة، والرقي بعدد الأمتار، والأقدام لأبراج تجارية، وسكنية تُمسك بالغيوم، وتلوّحُ للطائرات بنهضة عمرانية ضخمة بمقدار استهلاك الإنسان للثروات الطبيعية، ومدى تسخيره للأيدي العاملة الغربية، واستنزافه لها حتى الرمق الأخير.

تلك البلاد تتوه فيها الإنسانية، ويضيع فيها المعنى الحقيقي للحياة البشرية، ثمّة أقنعة يرتديها العامة تعكس حجم البشاعة، والمصلحة الرخيصة في إرضاء الأرباب، ومطاوعتهم، بلادٌ لا تحتل فيها إلّا رقماً مطولاً بخانات متعددة تسلب عمرك، وشغفك، تجرّدك من نكهة الإنسان.

كيف يحيا في مدينة الترف المبتذل؟!! حيث رائحة النفط تمزّق روحه، ومزاج الرمل يعكّر صفوه، وذلك الكمّ من الزّيف الاجتماعي يصعق ذاته.

جُرح ذاكرته ينزف في ظلّها، يتدفّق الإحساس في شراييه كماء السبيل، تلاحِقُه الصور شريطاً سينمائياً يستحيل قطعه، هو حبل أنفاسه السريّ الممتد من الشرق إلى دمشق.

يشتاق إليها... مدينة العفوية، والبساطة، والنضارة البشرية...

حُلم الغريب بالانتماء، لهفة العشّاق للقاء، وجه امرأةٍ تختصر النساء جمالاً...

تدمعُ عيناه خلف زجاج النافذة، ويرتوي من فنجانه الحزين... مثله...

يشرب تاريخاً برشفة عَجِلة، كأنه يطفئ نار قلبه الظامئ تذكاراً، ويهرب من ألم العمر، ولعنة الشوق المؤبد، علّه يرتجل النسيان، فيرتاح تنهداً.

أيُّ عذابٍ هذا؟؟!!

أيعقل أن نسكن ماضياً لا يبارحنا، وحاضراً سقيماً كهلاً في آن معاً، حبّذا كبسولةٌ تتناولها، تستقرّ بداخلك، لتجري في دمك بعدها، وتنفض عنك غبار الوهن، والألم الجسدي، تقطع سلاسل قيودك بالأحقاب القديمة لعمرك، وتباعد بين ضفتي الواقع، والسَّلف، تهدم جسر عبورها – هي – حافية القدمين فوق أشلاء أمنياتك.

يعتريه هدوءٌ مطبِق، صمتٌ كثيف، وغصّة تذبح أنفاسه الباردة قهراً، بشهقة المهزوم العائد من حربٍ ضروس.

يستذكر كل ما حصل، ملامح قصته الكسيحة، وصوت ضحكتها الموسيقي، أنشودة عمره، وتراتيل سُكرِهِ بها، طيشها اللعين، وسفر الربيع في عطرها.

كيف مَضَتْ، ولم يتعثّر بها يوماً عند أحد المنعطفات القدرية؟!!

أيُّ جُرأةٍ يبتدعها الوقت في نفي القلوب المعذَّبة إلى جزيرة العزلة!!

عشر سنواتٍ.. مرَّت... طَوَتْها يد الله عمداً، صفحةً مزّقَتْها الريح في عاصفة النسيان والإهمال.

قبل أن يسافر وقتها، التقى بها في ذلك المكان، ليسبق موعد إقلاع الطائرة بخمسة أشهر، ويقدّم لها قلبه على طبقٍ من ورق بعد أن وارب حقيقة هاجسه خلف جدران أيامه قرابة عشر سنوات من السجن العاطفي المؤبد في زنزانة روحها – روحه – تخللها زهايمر بفعل الانشقاق العمودي في انطلاقة الحياة الفتية لهما.

هو من رمى أوراق الخريف خاصته، نثرَها، استودعها في مهبّ الصدفة، ومضى "متناسياً" حروف اسمها الموسومة نقشاً سرمدياً على أوابد قلبه الحضارية.

أيُّ جنونٍ هذا ما يتملّكه؟!! أتجاري السنوات، وتقهرها، بعد أن تكسَّرت عقارب الساعات، وذَبُلَت المواعيد فوق أرصفة دمشق؟!!، لتخترق بآلة الزمن مشيئة إلهية باعدت طرقكما، وشتتت أشلاءكما، تحت سماء المدينة ذاتها.

هي مؤامرة الزمكان علينا، حين تنصب لك إشارات المرور، وازدحام العامة شُركاً مُحكَماً وسط زخم مشاعرك، وحضور فتوتك، تتغامز الغيوم، والجبال، والأبنية فيما بينها لتوقعك في مصيدة النوى، والمسافات، ثم ترديك قتيل العشق، ضحية إثمٍ عظيم... هو الحب.

دمشق... مدينةٌ تصافح قلبك، وتحضنه، تذرف دموعها أمامك صدقاً، ثم تتركك لمأساتك، وحسرتك... وتمضي.

رأيتُها في عيون المارّة، الباعة الجوالين، في تلفّتات الأطفال، وضحكات العشّاق، في إيماء المجانين، ومونولوج الفقراء، في صلاة الكافرين، وإلحاد المؤمنين.

بحثتُ عنها في مقاهٍ شرقية، وأسواقٍ شعبية، في شارع الحمراء، وأسواق الصالحية، أزقّة حي القيمرية، عند قناطر باب شرقي المرخَّمة، وسوق مدحت باشا الأثري، في مكانٍ اعتدنا عليه، واعتاد علينا...

عند طاولتنا المعهودة.. الآن ثمّة من يشبهنا...

كان لديه حدسٌ قوي بأنها ستكسر قلبه كآنية مُلئت بالزهور البنفسجية، كزجاجة عطرٍ فاخر تتشظّى انتحاراً من علوٍ لتبوح بما حَوَتْ من عبيرٍ، وتفصح عما تكنزه من خمر الورد، ودماء الياسمين.

– 4 –

"تعالي... يا بعيدة الجسد، ساكنة الروح، لنقيم معاً في هذا العالم الملعون..
نحتسي كأس المساء المعتق، لأرشف أثر الشفاه القرمزية فوقه..
وألثم الضوء التائه من انعكاساته المجنونة".

اتصل بها، ورتبا موعداً بناءً على طلبه، بعد تلك اللقاءات الجماعية قرر أن ينفرد بها وحدها.

هما معاً في مقهى يتوسط المدينة، شَعَرَتْ هي بحدسها الأنثوي، وبراعتها التراكمية بما يخبئه لها في ظرف قلبه المقفل بشمع الصداقة العتيقة، والبراءة الطفولية لكليهما.

في أواخر الربيع، حَدَثَ ذلك، سقطَتْ آخر أوراق تقويم شهر نيسان يومها، أهو شهرٌ للنسيان؟!!!

حين تتبعثر الحروف لا تفضي إلى المعنى المقصود، ربما لبسٌ نحوِي نقترفه، لم ينقذنا من تغلغل التاريخ، والأسماء، والصور في البال، ارتكاب موعد ليَنسى، لكنّه تشبَّثَ بحبال الساعات، والثواني، والهاجس، وأصبح ذاكرة حيَّة تؤرخ حَدثَاً كونياً في مجرَّة قلبه التائهة.

في قرارة نفسه، أدرَكَ أنّه يتهادى فوق حمم صهيرها الملتهبة، متسكّعاً ذات مساء نحو حتفه، معتقداً بأنه دربٌ معبَّد بورود اللقاء، يمتدّ كحلمٍ طاب له مكوثه، واستمراره، ممانعاً صحوته من النهوض نشوةً، متمنّياً أن يطوي صفحات الإسفلت تحت قدميه كأوراقه، حتى تقصر الأبعاد، ويتجمد الزمن ليلقاها...

مثقلاً بأوراقه في حقيبة تتدلى من كتفه، بحُلّته الأنيقة المعتادة، عابراً تلك المسافة من بيته إلى المقهى سيراً على قدميه، ربما ليتيقن أن ما يحدث هو حقيقة، ويتسنّى له الاستمتاع بالسعي نحوها، وشقّ طريقه إليها، لتلامس قدماه جاذبية الطبيعة، ويدرك الملموس رغبةً، هو المقتنع بأن السعادة تكمن في طريقنا للوصول إلى الشيء الذي نصبو إليه، وحين نصله يفتُر ماؤه، ويبهت وهجه، وألقه الطبيعيان، وأيُّ سعادةٍ كانت!! وأنت بوذيٌّ تهب نفسك قرباناً لأجل عينيها، وتحرق روحك بنار سحرها الموجع طاعةً.

تلمع عيناه، بمدى الأمتار التي قطعها، والدروب التي مشاها، فيضٌ معنوي قاتل يحجب عنه كل شيء... إلّا هي..

شعورٌ يبعث بك الإيمان، والحبّ، والجمال، إكسير الحياة بهيئة قطرات تلامس وجه عينيك، لأن النفس لم تحتمل قوة شلال الإحساس الغادق بمياه نشوتك، صدعٌ أصاب هالتك الروحية كاسراً حدة الزلزال الضارب في أعماق انتظارك.

يدندن موسيقاه كالمجنون بإيماءات فاضحة، يشرِّد أنامله سهواً، تائهاً في عالمه الخاص، يفكّر بها، يتخيلها، يستدرج روحها، هو الضائع في أكوانه، مغرِّداً لحريته، نجماً لامعاً في سمائها، ناشداً لسُكَّر أناملها الموعودة، مرتكباً لحماقة المواجهة الحتمية، موعوداً بالخيبة.

تلك الأوراق كتبها مؤخّراً حين التقى بها لأكثر من مرة ضمن جوقة الأصدقاء، لم يستطع إلّا أن يحرك قلمه النائم، والجاثم فوق منضدة عتيقة، ليخدش وجه أوراقه، دستور حياته،

ونبض قلبه، ومرجعه الأعلى عند حلول الليل، نديمه، وسميره الوحيد في ليالٍ موحشة، جرداء، باردة، إلّا من الكلمات، حيَّةً بمشاعره الرمضاء، عاصفة برياح أنوائه المتذبذبة.

لم يبح لها يوماً بمكنوناته، وهواجسه، آثر أن يشرع أبوابه للورق، مبتلاً بحبر صمته العلني، لعلَّ أدراجه تُبقي على السرِّ الدفين، تتواطأ معه على إخفاء كنز عمره المستقر في ثنايا قلبه، وخشب طاولته المعنوية.

يؤتمَن الورق على أفكارك، وكلماتك بحروفها، وأبعادها، نواياك، وترهاتك، صدقك، وكذبك، قوّتك، وضعفك، ضحكاتك، ودموعك، دون أن يمسَّها ضرر أو تلفٌ زمنيّ متعهداً لك بعدم البوح، والحفاظ على الخصوصية، والكتمان، يستقبل ما تلقي عليه من كلامٍ برحابةٍ شاسعة، بتراتبية معينة موزونة ليمنحها جمالية منطقية في تنظيم مكانيّ لنقش حروفك المزخرفة، لوحتك الكتابية الأدبية.

أنتَ، رسّام الهاجس، والفكرة بألوانك المائية على قطعة نسيج حياتك، بريشةٍ كسولة تمررها فوق بياضٍ مربك، لتمزج، وتجمع قوس قزح بتخبطٍ مترفٍ، ومزاجية متعالية تعانق ملامحه، فراغاً تشبعه بالروح، والمعنى.

نحَّاتُ صخور جسد الخيال، والواقع بإسفين قلمك، تزرعه ضارباً بيد إبداعك، وحكايتك لتحطم قسوة تجاربك، وتكسر فتات آلامك، لتحيي تمثال زهو انتصارك، ومرارة هزائمك.

ما هي إلّا أوراق اعتماده في مملكتها، أو ربما أدلة، وبراهين، وإثباتات رسمية على مقدار حبّه لها، ومدى اجتياحها لحدوده

الإقليمية، وتضاريس جغرافيته، صكوكٌ معتمدة، وموثّقة بأختامٍ ملونة بدمه لإعلان حقها التاريخي باحتلال كيانه، وسيطرتها على مساحات ذاته المستسلمة لطغيانها.

اعتقَدَ بأنها جواز سفره إلى قلبها، والطريق الأمثل، والأوحد لاجتياز ضفاف العمر نحوها، ولم يدرك احتمال أن تصبح أوراق خريف حياته المتساقطة في كل الفصول، المبتلَّة برذاذ مياه الحدائق الدمشقية المدهوسة بأقدام العاشقين المارين في محاذاتها، ليسيل حبرها دماً في أقنية الممرات، والأزقة، وتصب في ثغور روحه المنسية.

يقترب المقهى... سيكون شاهداً على لقائهما، يلتقط صوراً لهما ويودِعَهَا في أرشيف القادم من الزمن، وينقش كلامهما فوق جدرانه، ويصمت شارداً في ذهول حضورهما.

وصل إلى الباب، توقف لبعض الوقت، ليدرك المكان جيداً، ثمّة روَّاد بداخله، قليلو العدد، احتلوا بضع طاولات، ومكثوا عندها، أصدقاء، عشّاق، أقارب، وهو يناظر على عجلٍ، ويبحث عن مكانٍ يليقُ بلهفته، وحجم الاشتياق، والاعتراف لها، يرتقي إلى مستوى الشعور العظيم، والقشعريرة السحرية اللّذين يعتريان سحنته بعبثية مربكة، وفوضى المشاعر.

وقعَتْ عيناه على زاوية مطلَّة على رصيفٍ أمام المقهى، يحجبها عنه زجاجٌ لامعٌ وبعض شتلاتٍ وردية توحي بالحياة، وتؤثث للزبائن استقراراً نفسياً، وتوفر لهم طقساً يضاهي رقي اللقاءات، وعفوية العلاقات الإنسانية.

طالما أحبّ الجلوس خلف زجاج الأشياء كونها تمنحه رؤيا

شرودية يتوه فيها خيالاً جامحاً يُفَصِّلُهُ على مقاس أحلامه، وأبعاد رغبته، واقِعاً يغرقُ في تفاصيله بعمقٍ مركّزاً، مفكراً بأحوال نفسه، وتحوّلاتها، هموم قلبه المتكدسة عصوراً فوق جدار ماضيه وحاضره.

لعله يترقب اللحظات الأولى لطلتها، من وراء ذلك البلور اللامع النقي الشفاف كقلبه، فيحظى بمزيدٍ من متعة رؤيتها هذه المرة، ولكن في الخفاء السري الموارب بانتظارٍ ذكوري يليق بأنثى تعمدَتْ التأخير رفعةً، وأسلوباً، بروتوكولاً إنسانياً يتبنّاه أولئك الطامحون لزيادة جرعة الوقت سُمَّاً معنوياً يُدَسُّ فوق طاولات المواعيد، والاجتماعات، ويدخلون في لعبة الزمن، ليفرض على الآخر ثقل مكانته، وأهمية نفسه، وجانباً من الاستغناء العلني المبطّن بحيث يمنحه بضع دقائق مع وحدته، ممعناً في البقاء، واحتمالية اللالقاء، وفضّ الموعد كفقاعة الصابون تختفي بلا أثر، لكنّها تحترم الوعد، والعهد، تلك الصديقة الطفلة، بما تحمله من قسوة حياتية، وحيوية صادقة، فهي أنثاه التي يعشق، وصديقته الوفية، الخليلة الناضجة، نبيذ العمر، وجنى الأيام، اليوم سيطالبها بقطف عنقود قلبه المدلَّى من دالية روحه، ولملمة حباته العشر بأنامل رغبتها، وثغرها الملوَّع بأحمر موجوع من احتراق السكّر الخمري لفراولة تعشقها، هي من تراقص الأضواء كموسيقا تعبر الأرواح، وتغرق، وتلاعب المطر كوردةٍ تفتحُ أوراقَها لندى الصباح بلا ضجر.

هو يصنع ذاكرته بأفعاله، وأسلوبه، وطريقته الخاصة في حفر القلب، والعقل بأزاميل من ورق، ليتشظّى القلب، وتنكسر

صخوره الصلدة، ويزرع نقشاً من حنين لأيامٍ منحتْهُ حبّاً لن يتكرر، لعصرٍ ذهبي مرَّت به مملكته العشقية.

يدفن في عقله تلك الصور، والأحداث لينبشها بعد مرور الزمن، أحافيرُ حقبته، وأحجار كريمة ينقِّب عنها، شاهدة على الماضي، مفصحة عن كل ما حدث، مفككة لشيفرة نفسه، مفسِّرة لسجل تاريخه المُغبَر.

الانتظار... ذلك الصبر المفتعل نمارسه ونشربه قهوةً مريرة بحثاً عن اللّذة والمبتغى، وأيُّ انتظارٍ تحترفه!! عشر سنواتٍ مرَّت عنوانها الانتظار، صبرٌ اعتراك خلالها لينفد منك اليوم لدقائق، أيُّ منطقٍ حسّيّ تمتلكه؟!!

لأنّه يأخذ شكل المقاهي، والأماكن العامة يصبح أقسى، وأكثر جلافةً، كرسيٌّ فارغٌ أمامك إلّا من الخيال، يستفزّ وحدتك المؤقتة، ويطالب بها، بامتلاء الحيّز المقرر لوجودها، ليكسر جليد الصمت المتكون فوق لسانك، يحرّك مياه روحك المقشعرة شوقاً، يضيف حلاوةً معتادة لفنجانك الأسود، ويذيب ملح الصبر المندس في قاعه.

بعض الأحلام تأتي على شكل أنثى، لكنّك تستيقظ في نهايتها، بعد غيبوبة عاطفية لذيذة، مستلقياً على فراش تنهداتك، بذبحة قلبية تعصف بك، تلاعبك رياح المروج، والروابي، تحملك فوق الغيوم، تحلق بك لتتلاشى خلاياك نشوةً، وتصحو بعصفٍ واقعي يهدم برج حلمك، لتصبح بين أنقاضه مذعوراً من فظاعة، وهول الخراب المنتشر حَولَك، وتُدرك حينها حقيقة تخشاها لفرط قسوتها.

هي حلمه البكر ذات وقتٍ، ربيع أيامه، شتاء حزنه، خريف أوراقه، صيف ذاكرته، حرقة قلبه، وغصة السنين المحترقة...

لم تبارح عيناه شفافية الزجاج الملاصق له، يشرد في اتجاهٍ يُتَوَقّع أن تطلّ منه، يلاحق المارّة بقرب المكان، علّها تكون بينهم، لكنّه شعر أنّها ستهبط عنده من الغيب، تحملها غيمة ستستقر أمامه، تُنزِلها ثم تمضي...

لوهلة توقَّع أنها لن تأتي، وتردد بأن يحمل حقيبته الصغرى بما فيها من أوراق، ويرحل، هادماً جدار آماله، بانياً جداراً جديداً يحول بينه، وبينها حتى إشعار آخر.

أيّها الكون الفسيح... اركع...

أيّتها الأشجار، والأبنية، والأضواء... انحنِ...

يا دموع القلب، والعين، والسماء... اهطلي...

هو من حلَّق بعلوٍّ لامتناهٍ، وأمسك الفرح والسعادة بكلتا يديه، لمَسَ الغيوم والنجوم، وصنع أرجوحته الطفولية بينهما.

حين يصبح الشعور مئوي الأبعاد، من لحمٍ ودمٍ، بروحٍ فوسفورية مبهرة، بطاقة معنوية تجسّد هالةً مستعرة حولك، فيضاً من غبطة خرساء من فرط الإحساس المكثف العاجز عن التحول إلى حروف، وكلمات.

كدفء الضوء الصباحي، ونعومة نسيمٍ نديٍّ في لهيب صيفٍ أخرق، كرائحة عطرٍ تقتحم أنفاسك، كلحنٍ عظيمٍ يُرعِشُ جسدك، ويصقل روحك بعلاماته الموسيقية، ويشذبها كقطعة ألماسٍ معلقة في جيدها، هي الكنز الثمين المدفون في أعماقه – هو – القرصان الملهوف بعينٍ واحدة لامتلاك أحجاره، وحليه المفقودة منذ الأزل.

كنهارٍ جديد بعد ليلٍ دامسٍ، كوعدٍ وفيّ بعد طول انتظار...
كروح عادت إلى جسدها، ووحي هطل في فكر أديب...
أتَتْ...

***

على الطرف الآخر من الشارع المكتظّ بكل شيء، كانت، تعبرهُ نحو المقهى، بل عبرَتْ سنوات مضت، بخطوات معدودة محسوسة تطأ أنحاء قلبه، بتزامنٍ مع نبضاته المتدفقة سيلاً نحوها، يعبق برحيق عطرها المتوقع وسَفَر شعرها العبثي المصفّف، وهندامها الزاخم بالحلي، والأناقة المعهودة لفتاةٍ تجاور الخامسة والعشرين شغفاً، بذلك الامتلاء المتناسق، والمتجانس لجسدٍ يحترف الفالس، ويهوى الفلامنغو.

في كل خطوة، تدهس قلبه ليفرح دمه، ويشدو أغنية اللقاء الموعود، انتَعَلَتْ فرحه، وبهجته، وتهادَتْ على حرير نعومتها، لاحَتْ كقمرٍ يتسلّل إلينا ذات مساء يسكب لجين ضوئه على ملامح هيئتنا، وينثر رومانسية مرتجلة على عتبة إنسانيتنا.

فعلاً، لقد لبَّتْ دعوته إلى تلك الجلسة الندِيَّة الاعترافية المسبقة التحضير، والتحديد، لكنّه حقيقةً لم يحاول أن ينمِّق كلامه، ويرتب أفكاره قبل الموعد، بل اعتَمَدَ على تلقائية الموقف، وعفوية الحوار.

هو بطبيعة الحال، لا يحترف التصنّع، والأداء الدرامي في المشاهد الحياتية عامة، فيترك لطلاقته، وحُسنِ ألفاظه، والأهم من ذلك صدق مشاعره في التعبير عما يريد أن يقوله، أو يفكّر به.

أن تنتظر امرأةً في مقتبل العمر، مسكوناً بهواجس الروح، غافلاً عن احتمالات القادم، متوجّساً لفقدان ما تملك من عاطفةٍ، وشعور لا تُختَصَر بكلمات.

تحتلُّ زاويةً في هذا العالم، ربما لتكون أسير الوقت، والأيام في زنزانة الوجود، تقيّد ذاتك بأغلال الانتظار، رهينة الموعد، على قيد حكاية تُكتَب بماء البوح، وتنهيدة المساء.

ما هو إلّا ضربٌ من جنون، تضع فيه نفسك أمام محكمة قدرية، جزاء ما اقترف قلبك من حنين، لتعترف بعد كل ذلك الغياب بأنك ضحية العيون الباسمة القاتلة جمالاً، جيفةً احترقَتْ قرباناً لكبريائها، رماداً لخشب الذاكرة المشتعل سهواً، أشلاء إنسان معطوب النسيان.

وهي الجلّاد بسوط الغفلة، والصدفة القادمة من أعماق الوجدان، والتاريخ المتلهفة لسماع كلماته المغبرَّة، المدركة لشمع احتراقه المتساقط عبر ذلك الطريق.

شابٌ وفتاة، هما السّرّ في اكتمال دورة الحياة، عناصرُ سرمدية أزلية ينقشان على لوح الصلصال أبجدية التكوين، بلغة الاتصال الروحي، يحظيان بمجدٍ أسطوري، وأوسمة للحب، تُعَلَّق شرفاً على صدر التجربة، تذكارٌ شرفيّ النكهة كأبطال المعارك، والحروب الدامية، لتمُرَّ السنون، وتبقى محاطاً بنياشين ماضيك، تتأمل ذكريات صمودك، ونكساتك، خسارتك، وهزائمك، فرحتك، وحزنك، عيناها... وأنتَ...

مستسلماً للآتي، منزوع الفتيل العشقي لقلبك، محكوماً بسلطة عينيها، مترقباً لأمواج روحها تحملك على راحتي السعادة،

والرضى، لتحلق بك على أكتاف الريح حبّاً، تنتشلك من مستنقع الحيرة، والأمل، غريقاً في شبر حبّ، تائهاً في مدارات كونها الفسيح ضياعاً.

تخطو على أصابع البيانو، حجارة الرصيف، ليتوهّج قلبه لحناً ينثر طيباً على سلمه المتصاعد خفقاناً، وتتداخل علاماته الموسيقية باضطراب جميل.

أكانت هي موسيقاه المثلى، تبزغُ من آلات نبضه المتدفّق، حين تشتدّ أوتار روحه الهائمة بها، ويَطرق بأنامله شجناً عميقاً يفيض من عينيه.

تتسمر اللحظة لدقائق!! يتوقف مجرى الزمن، تصمت الأنفاس دهراً، تغفو الحركة عند أبواب المكان... وتُقبِل هي.

تمخر عباب اللقاء، تأتيك كسفر أغنيةٍ عبر الأثير، كالعطر يفوح ارتحالاً عابراً لتلافيف دماغك، مستوطناً لخلايا ذاكرتك، مفصحاً عن حكاية وردةٍ بهيئة أنثى، ومن قال إن الورود ليست إلّا نساءً، عبَرَهَا رجالٌ كثيرون سرقوا عبيرها، ولثموا تويجها بشفاههم بجشعٍ ذكوري مفرط، وشبقٍ متمرّد، دون أن يقطفوها عنوةً أو ينتشلوها من جذورها، من أحضان أوراقها بذريعة المحافظة على وجودها وعدم المساس بكيانها بعد أن تزوَّد برحيق جمالها، ولامس ثوب أنوثتها ليتركها وحيدة في تلك الحديقة المكتظة بالغرابة – الحياة – بين أيدي المارين هنا بقرب لوحةٍ كُتِبَ عليها: "ممنوع الاقتراب، والتصوير... ممنوع الحب...".

وطئتْ باب المقهى، دون أن تبحث عنه، وكأنه هاتَفَها، وأخبرها أي طاولة سيختار، وأين يحب أن يمكث، لينتظرها،

كانت تعلم أنه سيسبقها إلى مسرح الحبّ المسائي، إلى تلك المحاكمة العلنية لقلبيهما، وهي استشعرَتْ بحدسها الأنثوي، ومعرفتها به ذائقته المكانية في الجلوس خلف زجاج الانتظار، والمواعيد، هو سيّد الآتي بخيبته، وفرحته، زهوه، واحتضاره، مكابراً على ملح قلبه، ملذوع الخاطر، مشظّى كآنيةٍ في قصرٍ أرستقراطي منكوب.

كانت في قرارة نفسها مدركةً لما يجول في مدارات روحه، وتفكيره، تعرفه جيداً كتاباً مفتوحاً على الرغم من ذلك البعد "النوعي" بينهما، تلك المسافة التي إذا ما تعدّاها كل منهما، احترقا بلهيب الحقيقة المغمورة عمداً.

كل ما يفصلهما هو شرخٌ لطيف اتسع، وامتد بفعل السنوات المحترقة رماداً، وذلك الاندماج العفوي في صهير الأصدقاء عموماً، وخوفه من مقصلة الاعتراف لها بتلك الليالي الطوال، والسهر المحاطة بنجوم أقراطها الفضية، وكحل العيون الشهيَّة المؤلمة جمالاً، برذاذ أنوثتها المتناثر في خلايا الهواء، وزخم الجاذبية النابع من محياها.

الحبّ... ذلك الشعور بالذات الكبرى، يتسلّل نحوك زاحفاً كنهارٍ موعودٍ يُمسك قلبك بكلتا يديه، ضاغطاً بيدٍ تعصر عنباً هو نبيذ روحك المشتهى، تتمنّى أن تكون هو، وتخشى أن يحترق صوت قلبك حين يدنو، تسمع نبض طريقك كطَرقِ نعالِ القادمين فوق الحجر، تُصبح الدروب مباحة كهواء المدن، والغابات، تلمحُ سبيلاً إلى السماء خلف أصابعك المواجهة للغيوم، تلهو بخفّة، وكأن المادة ترقص فرحاً لترتفع، وتكسر قانون الطبيعة، تغدو

ذرات جسدك هائمةً في مهب الريح، تعلو، تتجمَّل، تسرق اللون من قوس قزح، والنور من وجه الصباح، كأغنيةٍ طفوليةٍ تعبر أنفاسك لتستقرّ في جوف حكايتك، تحيا دهراً ترافقك كالزمن مهما ابتعدت عن أرض واقعك.

ها أنتَ تصنع ذاكرةً بخيوط موعدٍ تقترفه عند حدود المساء، وترمي ثقلاً معنوياً عن ظهر الحب، صخوراً عاطفية تتدحرج فوق سفوح الاعتراف، لتمضي، وتستقرّ في نهاية المنحنى، لتجثم على صدر الحقيقة، وتصبح شيئاً مادياً، لا شك في حدوثه، متوجّساً من عواقب القرار، ذلك الدمار المصاحب للسقوط في أتون العشق، تلك الكارثة الناجمة عن البوح الأخير بعد احتراف الصمت، والعمل به طوال سنواتٍ من الكتمان الفاضح.

ما بارحت عيناي عينيها، خطواتها الأنثوية تتسلّل نحوي، وتلك الهالة الحيوية تطوقها بعنفٍ، كما عهدُتها دوماً، تنثر عبير زهوها، وصراحة إغوائها في المكان، توقد فتيل أنوثتها الممتد نحوي، لأشتعل ببارود المشاعر، وانفجار الكلمات المنمّقة على عَجَلٍ، ما خلا تلك المعاني، والعبارات على وسائد أوراقي الممزوجة بحبر الإعجاب المعلن.

كيف ليدها أن تصافح يدي للحظات؟؟!!

أليسَ من المفترض أن نغتال الوقت قليلاً..؟؟ اتركيها فلربما تنبت أغصان الياسمين، والليلك، والمانوليا بعد قليل...

لأشعر بنبض معصمك، وأوعز لقلبي أن ينصاع لأوامر إيقاع أنفاسك ودقات قلبك، ويجري دمي تبعاً لمزاج نبضك، وقرار كيانك.

في كل لقاءٍ، تكتمل عناصر الروح، والجسد، تلك الطاقة الملازمة لهذا الحيّز من الفراغ الممتلئ بكما، كل النظرات، الكلمات، المصافحة، المشاعر، الموسيقا، الاهتمام، الجمال، المحبة تخلق كوناً من الإنسانية الحقَّة المشرَّعة نحو اللاحدود، المُرَتّبة لخطواتٍ قادمة تفضي إلى المراد، وتصنع أحداثاً، ومواقف تصقل الزمن، وتهذّبه، وتجمع روحين تعاهدا على صناعة ذكريات من نسيج المستقبل ليلتحفا بالحبّ كِناناً من وعودٍ ممطرة...

فَرِحَاً بها، عند طاولةٍ في زاوية مقهىً، أنتما معاً، تعبركما اللحظات، والدقائق في المكان ذاته، أنتَ بزهو حكايتك، وطلَّتك العشرينية الغضّة، بحُلَّةٍ رجولية أدبية توحي بالعمق، وهي بأنوثتها الفارعة المستحقَّة، وحيوية شغفها المقبِل على الحياة دوماً، والمُغَلَّف بخوفٍ مكابرٍ، خفيف الحضور، مسكونةً بالآتي كعادتها، متوَّجة بماضٍ آفل لا يخلو من الحسرة – مِثلَهُ.

تخيَّل لوهلةٍ انتهاء رحلة عمره القصيرة في ظلِّ موعدٍ، وهي أمامه، تشاركه ذلك الحيّز الجميل من العالم، لا يريد شيئاً بعد الآن، سوى أن يغفو بين يديها... ويرحل...

بعيداً عن دنياه، لا يحمل في ذاكرته إلّا صورتها، ويمضي مخبوزاً بدقيق يديها، خبز جلدها الناعم فوق شفتيه، ورائحة العمر المختصَر في حضرتها، بتلك النظرة الأخيرة في أحجار عينيها اللامعتين كالكهرمان، اختصارٌ روحي لرواية وجودهما، ونهايةٌ درامية افتعَلَها شهوةً للفرح، والخلاص من عذابٍ أرهق جسد ذاكرته.

نحن أسرى المقاهي، تحتلنا بكل رفقٍ، ورضىً تامَّين، باستسلامٍ شرعي، وخضوعٍ مُبْرَمْ تحت سلطة الوقائع، والأحداث، وسطوة أنثى لا ترحم.

أنتَ وهي... على ضفتين متقابلتين، بينكما طاولة الوقت، جسر عبوركما، امتدادٌ لروحكما العاشقة، ارتكاز يديكما على خشب الذاكرة، لتصنعا تلك الحالة الجمالية بحرفيَّة مشهدية صرفة تبوح بلذّة التواصل وفرح اللقاء، وكأنها لوحةٌ تشكيلية مجسَّمة مطعَّمة بموسيقا الصورة المهندَسة بإغواء اختلافكما، ونكهة محبتكما، يكللكما تاجٌ من السلام الهائم حولكما، وخطوط القهوة المرسومة بتلقائية على حواف الفنجان، هي آثار شاهدة على حضارة مملكتكما الروحية، دليلٌ موثَّق بالعشق المعهود على مروركما فوق السلم الموسيقي لنغم العمر، ومتعة التجربة، على الرغم من هول الاحتراق التام بلهيب الفاجعة، وحمم البركان النفسي اللاذعة، وكل الخراب الناجم عن فظاعة ما حدث.

ويبقى القلب وفيّاً، لذكرياتٍ عَصَفَتْ ببحار السنين، وأيامٍ معلقة على جدار الزمن، صورٌ، ومواقفٌ لم تبارح ظل أيامه، يجترعها كل يومٍ ماءً يُطفئ به حرقة الحرمان، ونار الأسى المُتَّقِدَة.

كان العمرُ شاهداً على احتفاء روحي بها، على قلبٍ انكسرَ زُجاجه كآنيةٍ حديثة العهد، مستقرّة في كيان الوجد، مرصَّعة بزخرفة فنيَّة برَّاقة منذ العصور الوسطى لرؤيتها.

أتأتي الآن لترمي دلو اعترافك في بئر وجودها..!!!

أترجوهُ ممتلئاً بماء قلبها العذب، فلربما فرغ من محتواه،

ولم يتبقَّ به سوى حصى الأيام، ورمال الروح المترسّبة ضياعاً، لعلك تطمح إلى المساس بذلك المخزون الاحتياطي من مياه إحساسها الجارية في مسام صخور غموضها، بالاستيلاء عمداً على قطرات الحبّ المعتَّق المخبأة في أعماق أنوثتها.

أيّها الحالم برتابة الحبّ المنظَّم، بهندسته وفقاً لمزاج عنفوانك، وسرد رؤيتك، تنمقهُ كجيشٍ من الكلمات، تحافظ عليه كمشاعر طفلٍ مبتسم، تغلّفُه بورقٍ لامعٍ خشية احتراقه كخشب المواسم، تُرَبّتُ فوق كتفيه، وتضمه بمحبّة مطلقة، هو إرثك الحضاري، حصيلة زمنٍ مضى، جنى العمر، كنز هواجسك.

هي أكثر إشارة استفهام جدلاً في حياتك، تجرُّ وراءها المئات من علامات التعجب الحائرة التائهة في مسار تاريخك.

تلك الفتاة المحصَّنة بهالة جاذبة للرجال، المستقطِبة لأحلام ذكوريتهم، الزاخمة بعطر فطرتها الشهي الموحي بجلالٍ أنوثي يهيمن على قلوبهم، ويذكر بسطوةٍ لذيذة تشرع لها أبوابك مُرَحِّباً غير آبه بنتائج ما تفعل.

هو التوق للحديث معها حول أي شيء، وملامسة الجانب النفسيّ لشخصها، وذلك الارتياح الرهف في تبادل الكلمات، والأفكار، ربما هو استبدال للأرواح، وتقمُّص علني لذاتٍ تحترف الحياة، وتمارسها بلا قيود اجتماعية تجبرك على احترام مبادئها، ودستور شريعتها.

للحظات تتمنّى أن تكون أنتَ – هي – كي تشعر بما يجري بداخلها من هواجس، وصراعٍ، وجدلٍ أنيق، لأنك تحبّها

بكل جوارحك، وتعشق الضّدّ فيها، وما يمنحك إياه التجلي فيها من راحة روحٍ تودُّ صيرورتها لتصل إلى أعلى درجات الإحساس بها، وتسقط عنك هوية الخوف من عيش تجربتها، ومواجهة تلك القوة الكامنة في أدراج حياتها.

حين نُعجَب بأحدٍ ما، ونحبّ تفاصيله، وسلوكه، نمنح لنفسنا الإذن – عن غير وعي مدرَك – بتقمص كلامه، حركاته، أسلوبه، مهما كانت معرفتنا به عن قرب أو على مسافة إنسانية بيننا، تنصهر قي بوتقة إيماءاته، ردّات فعله الحركية، طريقة حديثه وإيقاع ضحكته، حتى عفوية سَيرهِ في الحياة، فوق أرصفة الوجود.

أن تشرُد في صيف العيون اللّوزية، وتتوه في مواسم نضارتهما... عيناها... بمنأى عن النكران.

كيف تنسى، وتاريخك مكتوبٌ على خشب حزنهما، مدموغٌ بختمٍ أبديّ بلون صهير القلب... "أحبك"..

كيف لك أن تقاوم مقصلة جمالها، ترزح تحت سطوة قوتهما، ترضى مسلّماً بفرح ناصعٍ تهبه إياك لفتةٌ عفوية حيث تتلاقى دروب النظر، وتتقاطع مسارات البصر، لتنشب شرارة لذيذة في أسلاك روحك المتصلة بقلبك، وتشهق غبطةً ليعصف بك شعورٌ بكهرباء الحبّ الصاعقة تبعث الإحساس الكونيّ في نفسٍ بشرية ترقص حول نار سعادتها، وتلمع نجوم السماء عقداً لجينياً، لتمسح سواد فضائها بممحاة الأمل.

تخفق نبضات الكلمات، القلب صامتٌ حائرٌ، لسان البدء مبتورٌ، وأيُّ بداية ستكون؟؟!!

هل لك أن تنسج الحروف على عجَلٍ، وتشرع باب عفويتك أمامها؟؟!!

تنتظر – هي – شلالُ تعبيرك، وهطول حديثك فوق أرضها، بيقينٍ خفيٍّ بما ستُفضي به لها، تبعاً لحدسها الحاذق ومعرفتها المبطَّنة بما تبطّن – أنتَ – وما تحمل لها من مشاعر تتلقّفها أنثى بحواسها المتشبّعة طوال سنواتٍ مضتْ وأنتما معاً في صحبةٍ جماعية كان لها الدور الأكبر في البقاء على استمرارية التواصل المتقطّع، والحفاظ على الاعتراف لها بما تَكِنُّ من حبّ، في ظل شجرة الصداقة العلنية، حيث تخبئ صندوقاً خشبياً مدفوناً عند كعبها، يحضنُ بداخله أوراقاً صفراء عتيقة، مهتكة الأطراف، كُتِبَ عليها بحبر الذاكرة المجعَّد، الماكث طويلاً تحت تراب العمر، في أعماق وعيك، وانتظارك، خوفك، وترقبك، أيامك، وحرقتك.

كيف لكَ أن تقترض الكلمات، وتستجديها... وأنتَ سيِّدُها؟!!

تلملمها كأوراق الخريف تحت قدميها، تقطفها من شجرة اللقاء العارية إلّا من البسمة المقنَّعة على وجهيكما، تخفي مخزوناً من المحبّة الرهفة بينكما بلا عشقٍ، تخبئ عمراً من المكانة الروحية جهراً، وعِشرةً وقتية أصيلة تراكمت عبر سنوات من التواصل، والتجاذب الجميل لروحها الملكيَّة، وقلبك المستغرق في أعماق عالمها، أنتَ الحالمُ بعناقٍ حادٍّ تشتمُّ فيه رائحة مساماتها، تلثم ثغر ضفائرها بقسوة المشتاق، لتشبع ذاتك برحيق عنقها المعتَّق.

هي مستقرّ ارتحاله، ميناء سفره، صَبيَّةٌ تقف عند الرصيف البحري بفستانها الملوَّن الخفيف، الملتصِق بجسدها، تلك القبعة

الصيفية مظلّة روحها من حرقة الشمس الصريحة، وحذاءٍ أنثوي مريح الخُطا، طفولي الهيئة، تلوّح لقدومه وابتعاده، كأنها الريح تلاعب ثوبها جيئةً وذهاباً عند الوداع، تفتح له باب المواعيد، والأمل، ربما لتخفف عنه وطأة السفر، بما تحمله هي من روحٍ معنوية مرتفعة المنسوب، ومحبّةٍ، واحترام لذاته، كما عهدها دائماً ساطعة الحقيقة، برَّاقة الوجود، واضحة المعالم، علنية المشاعر، صارخة الانفعال، والتفاعل.

أنثى تُلاعب الزمن على حبلٍ استعراضيّ، تخطو برؤوس أصابعها فوقه، والنيران تنتظر سقوطها، بحذرٍ غير مسحوب، تُنازِل الحياة في حلبةٍ للصراع مع الأيام، والتقاليد، والأعراف، هي المجدِّدَة لفكرٍ تنويري معاصر يتيح لها أن تُحلِّق خارج الصندوق المعلَّب لأقرانها.

لن يخونه التعبير هذا اليوم، إن عجِزَتْ كلماته عن البوح، فعيناه تبرقان بفرحٍ مُربِك، يغمره إحساسٌ عالٍ ببدء حكاية معها، والشروع بالاقتراب من مملكتها، ودخولها من أوسع أبوابها، هي المدينة الحلم حيث يهوى، موطن قلبه المشظّى، إرثُ ماضيه العائد من سراب.

في حضرتها يصبح الصمت كلاماً، والعمر يوماً، والاعتراف جنوناً صبيانياً يغلفه وجعٌ يتجاوز مساحات الوقت، ويعبر فضاءات لانهائية من الحسرة، والندم على جريمة اقترفها تجاه ذاته، خيانة قلبه لعينين آثر ألّا يَمثُل أمامهما إلّا بعد مرور زمنٍ مذهلٍ من الواقعة الأولى.

هو من سيسقيها نبيذ روحه المعتّق بعد أن خبّأه في المخزن

السريّ الداخلي لنفسه، في تلك الغرفة الموصدة لهواجسه، قرر أن يزيل بيت العنكبوت عن مقبض بابها، ويستخدم المفتاح الصدئ المدفون في تراب الوجدان يحملهُ، ويعبث في الأقفال المفتعلة، متلهفاً لرؤية أثاثها كارهاً لغبار الذاكرة المرتاح فوق خشبها، محاطاً بالحنين، والحزن، والخوف من لعنة التذكار المرافقة لنواميس التركات الثمينة، المادية منها، والعاطفية.

ترافقهُ حقيبةٌ جلدية هذه المرَّة، على غير عادته، فهو لا يحبّ أن يتعثّر بأدواته في محطات تجواله، ساعة يده، خاتمٌ ذهبيّ، طوقٌ فضيّ اللون، كُلها تضيّق الخناق عليه، وتجعله أسير الأشياء، والممتلكات.

في جوفها أوراق قلبه، بياضٌ مُرصَّع بفحم الكلمات، أشجارُ روحه المدفونة في طين العمر، تحوَّلَتْ بفعل التراكم والزمن إلى منجمٍ للتعبير، بسواد القلم الحتمي، وشفافية أحاسيسه المتكتلة فوق طاولة الروح منذ الحقب الأول للتكوين.

مستندات ترسّخ آثار عشقه، بصمات مرورها في ربيع الأيام، دلائل، وشواهد اقترافه لإثم الحبّ المجلجل علناً، إثباتٌ مؤكّد على احتلالها تقاسيم أنغامه، والتسكّع على قارعة طريقه الملتف صعوداً، إيجازٌ لرائحة الحروف، والنقاط المزروعة فيها.

أيُعقَل أن تحمل أدلة إدانتك، مبتهجاً، فخوراً بما ارتكَبْتَ؟؟!!

أنتَ من ذبح أوردته ليسقي ياسمين كبريائها، استَعَرْتَ نور قلبك لتضيء لها درب أنوثتها المرخَّم، خَلَعْتَ جلدك قطعة قطعة لتدفّئ لحمها، سخَّرْتَ لغتك لوصف فتنتها، وعذوبة ضحكتها، جَعَلْتَ قهوتك حبر صباحاتك، وأحمر شفاهها رمزاً تاريخياً يسكن

راية إطلالتها، أنتَ من صفَّقَ لرقص جسدها على مذبح هيكلك، من باركَ خمر رشفتها، وهلّلَ لبزوغ رؤيتها، وصلَّ لاحتراق شمع عمره كرماً لعينيها، قرباناً ليحظى بهدية قلبها.

تطالعهُ هي، كأنها تراه للصدفة الأولى، بملامح شبابه، وارتباك رجولته، توثّقُ بعينيها لحظات سقوطه في هاوية الإفصاح، هو النسر المحلّقُ في سماءٍ رحبةٍ يعشقها، المحكوم بالانصياع إلى لون الشمس فيهما، المهدد برموشهما بالقنص على أعين المارة، والعارفين بما حدث.

يُخرِجُ أوراقه من صمت حقيبته، بهدوءٍ مُتقَنٍ، وخفَّةٍ معتدلة، يسحبها كجنينٍ من رحم أمّه، وثائق ميلاده بلا عناوين، هوية ذاكرته المختبئة في أدراج القدر.

بروحٍ مكسورة، وتعبٍ مبتكَر، واستسلام دهشتها، وصمتها، تحنَّطَتْ الثواني لساعاتٍ، وتوقَّفَتْ عقارب التوقيت عن الدوران، حتى المارة صُبِغوا بالأبيض، والأسود، تعطل الوقت بهم، رحلوا، تاركين ملعب الحاضر لقلبٍ يُقَدِّمُ كَفَنهُ على طاولة في مقهىً لأنثى تحترق روحها بعطر اللحظة نشوةً، ويسري في عروقها اعتزازٌ مبطَّن بغزلٍ شاعريّ يرميه شابٌ بين يديها على هيئة ورق.

يلقي عليها أجمل عباراته المنقوشة بحروفٍ إلكترونية منمَّقة، كان قد فرَّغَها على حاسبه الشخصي، على الرغم أنه لا يحبّذ، ويرغب بالكتابة التقنية المعاصرة على بياضٍ افتراضي غير محسوس، كونه مرتبطاً بعلاقة روحية مخلصة مع الأقلام المترَفَة، وجمالية البوح أمام مرآة ورقية يكلمها دوماً، يمسح بأنامله

وجهها، بحبر المشاعر وأدوات التجميل خاصتهُ، ليغدو خالياً من الندوب المنسيَّة فوق معالمه، ولربما ليجمِّلها قاصداً إظهارها، بذلك العطب المشرِّف المستقرّ في ملامح قصته.

يتلو على مسامعها بيان حُبِّهِ، وإعلان عشقه المختبئ في ضمير القلب، تتوالى كلماته كموسيقا تصدح من بيانو الصالونات الأدبية بذلك الطرق الناعم لمطارقه على جدولٍ ينسابُ فرَحاً، تتساقط قطراته فوق بلاط أنيقٍ.

يُرَتِّلُ سِفْرَ قصته بخشوعٍ روحي، وهذيانٍ نفسي يتجاوز مساحة اللقاء، وحجم المكان، والفراغ، أوراقه مهتزَّة رجِفَة من فرط الشعور بتأوه عاطفي غير معلَن، يختزله بكسلٍ كلامي، وهدوء حروفه المستقرَّة في جوفها، والعالقة في مسمعها، كطائرٍ استعصى في جرود الصخور عالياً، فَرِحاً بما ناله من ارتفاع، قلقاً على نفسه من مغبَّة الآتي، ووحشة القادم.

يقرأ بصوتٍ داكنٍ، بلون الحزن الملطَّخ بالفرح، ما فاض من ماء الإحساس، تلك العبارات المدجّجة بالحب، العابثة بمفاتيح الوجد، المارّة على سجَّادٍ أحمر نحوها، يحتفي بها كأنها آخر ما يُقال، مع أن البداية لم تبدأ بعد، فهو يشعل فتيل قلبها بسحر السرد، يوصي لها بذهب المشاعر إرثاً، بتلك الهكتارات المزروعة بورد العمر، حقول القمح الممتدة كشعرها على أريكة يديه، سنابلُ حنطة قلبه المدروسة برموش عينيها، حصادُ المواسم المحترقة بزيت الكلمات، ونار غوايتها.

بتعاسة الشعراء، وجنون الأدباء، يرمي كُلَّ ورقةٍ بعد الانتهاء منها، بانسيابية مترَفة، واستغناءٍ محتَّم، تفارق يده كعصفورٍ أُطلِقَ

سراحه، وغاب، تتساقط تحت الطاولة كأوراق الخريف، مكسَّرة، مُبَعْثَرَة، متهالكة، متقصّفة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد السقوط الحرّ بتأرجح طبيعي ناجمٍ عن انتحارٍ أدبيّ بفعل فاعل.

ينثر ربيع فكره على أرضٍ بيضاء، ويزرعها ببذور لغته، لتنمو أشجاراً باسقة يقطفُ ثمر نتاجها إبداعاً، وخلقاً، تفاح لذته، ياسمين فرحِه، ورود أشجانه.

يضفي لمسته الخاصة على الأشياء، يصبغها بحُلَّةٍ نضرة توافق مزاج تفكيره وأناقة منطقه.

في الحبّ – كما في غيره – يخلُق بُعداً درامياً في تصرفاته، لا يعنيه أن يلفتَ انتباه الآخرين له، ولكن شيئاً ما في فطرته يدعوه إلى اعتماد منهجية منفردة بذاتها تحاكي هواجسه، وتفرعات طموحه.

لم تحاول هي أن تقاطعه بتاتاً، بل اكتفَتْ بنظراتٍ طالما انتظرها، وحَلِمَ بها منذ عشر سنوات مَضَتْ، يراها لأوّل مرّة بهذه الصورة، هو الحاكم بأمر الحدث، حُطَامٌ ورقيّ بهيئة بشر، أنقاضُ ذاكرةٍ تعفَّنَتْ شغفاً وإخلاصاً، جسدٌ يمارس إغراءه أمام كبرياء صمتها، سحابةٌ ذكورية تهطل أحلاماً على طاولة الوعد.

تضعُ يدها اليمنى تحت وجنتها، بإعجابٍ صريحٍ يبوح به صمتها، يَسْمَعُ صوتَ قلبها، وشهقتها، وتنهُّداً خفيّاً يجول في أنفاسها، تمنّى لو يعلمُ ماذا يختبئ الآن في بالها، بماذا تفكِّر، هي الواثقة القادرة في كل وقتٍ، يراها مشظاة كمرآة الدهشة على سحنتها، يُغلفها همُّ الحيرة، والارتباك، والأجمل من ذلك اللمعان في لؤلؤ عينيها اللوزيتين.

جمالٌ مؤلمٌ حقاً..!! كأنه أتى بعد كل هذا الغياب، ليشاهد سحراً كونياً يتجلى فيهما، أيكون فعلاً قد رتَّبَ كل ما حصل، لينال تلك الصورة المشهدية العظيمة في موعد افتعله قراراً لا طعن فيه؟؟!!

يرشفُ قليلاً من فنجانه، ويتابع، يسترق النظر إليها، لوهلةٍ التقطَ لها صورةً بعينيه، لا تموت أبداً، ربما ستكون كل ما سيجنيه من جحيم التذكار، يراها هو أيضاً من خلف ضباب نشوته، يسكنُ عينيه حزنٌ عتيق.. وهي.

الآن يسبح فيهما بريق فرحته المالح، يراقبها خلف زجاجٍ من فيض مياه اللحظة، لا يريد شيئاً الآن، سوى أن يلثم قطراتها بأنامله، ويضمَّها إليه، ثم يموت.

أيُّ قصاصٍ يفرضه على نفسه!! يُطوِّقُ به عنق حاضره بحبل المواجهة، ليشنق صمته في ساحة الاعتراف، متدلياً قبالة الريح، جيئةً، وذهاباً، في ظل مدينة تعبق بالحياة، وتمنح للعشّاق قسطاً من الواقعية البحتة بعيداً عن قصص الغرام العابرة، وحكايات ألف ليلة وليلة...

تمنحنا الحياة لحظاتٍ سماوية خلال عمرنا، هُدنَةً إلهية بمؤقتٍ زمنيّ دقيق ضابطٍ لاإرادي لحجم المشاعر المفرطة وقتها، ربما لأننا نقترب من السمو الروحي حينها، ويتخلّلنا كل ذلك الكمّ من الغبطة المستترة، والتي سترقى بنا إلى الارتفاع قليلاً عن مادية الوجود، وتجعلنا أكثر إحساساً بماهية الحدث، وتجلياته.

نعلو بضعة أقدامٍ فوق مستوى سطح الإدراك، لنلامس

بالمجردات حقائق نفسية لا يختزلها التعبير، أو يُفصح بها، لغةً، وأصواتاً، إنّما تتجسد بداخلنا على هيئة كهرباء ذاتية تعبر مسارات غامضة تفضي إلى وعينا المرهَف.

عَانَقَتْ رُوحُهُ الجمال المستوطن في كل شيء... وعانقَتْها...

أضْحَتْ عيناه مرتعاً للذبول، والكسل، بعد أن وضع حِمْلَ الماضي أمامها، جبالٌ جَثَمَتْ على أرض قلبه، أثقالٌ حسّيَّة تشبَّثَتْ بمسام ذاكرته ولم تسقط يوماً، سفنٌ أضاعَتْ مراسيها، وضَلَّتْ وجهة مينائها... تائهةً مجنونة.

كمن أنهى آخر جولاته في حلبة الصراع بين القرار، والتردّد، هو الضاحك المبتسم في مشواره..

مُهَرّجٌ ألصقَ ابتسامته، وفرَحه على قناع شخصه، سعيداً راضياً طوال الوقت، يُوَطِّنُ البهجة، والأمل في وجدان البشر، غيرَ آبهين بما يعتريه دوماً، غافلين عن فداحة الحزن، والانكسار داخل كواليس شعوره، يجرُّ وراءه رداء لهوه، ممسكاً بابتسامته المجمَّدة، عائداً إلى غرفَتِهِ، يطارحُ التضاد المحتَّم بين الشجن، والسرور.

تعوَّد في مراحل عمره أن يسكب ماء أحاسيسه على جسد الورق، علَّ البراعم تنبتُ منه، وتورق أزهاره البيضاء، صانعاً من صلصال فراغه حياةً أوجد عناصرها بنفسه، مكتشفاً لوصفة سحرية تشفي من وهن الزمن، وألم التجربة.

بداخلنا دائماً، ينبعثُ حنينٌ إلى صحبته، ذلك النموذج المطوَّر، والمحدَّث من الخشب هو الأرق، والألطف لمساً، والأنصع لوناً، والأمين سراً، بنصاعته الصارخة، وعذريته المباحة "شهوةً"، بهندسته البسيطة الأنيقة المتّسقة مع ذهنية الإنسان في

النمط الانطباعي للأشياء الحميمية، تلك الرقائق لذيذة الهيئة، حادة الأطراف، أنصالٌ جارحة لمن يسيء معاملتها، جروفٌ صخرية تطل منها نحو الأوقيانوس العظيم للكلمات، هي أنثى اليراع، وقرينه، مهد التعبير، وأصله، موطن الليل حين يعلن الهروب، منفى الأدباء، والشعراء رغبةً، أسرَّة الفكر عندما يستجدي الراحة.

لم يستطع طوال تلك المدة إلّا الكتابة على جدران الفراغ، أهو بذلك يناجي روح الطبيعة ويلجأ إليها، هرباً من الصفعة البشرية المهيبة، خوفاً من انكسار ناصية الحلم عند شواطئ البوح.

إلّا أنّه أدرك بأن السرد الليليّ في أذن الورق، روح الخشب، هو مونولوج تعبيري يشرح فيه قصّتهُ المتعثرة لسميرٍ، ونديمٍ حقيقيّ، يكتمُ سرّاً عالقاً في جوفه منصتاً لحديث عاشق متهور، متلقفاً لحروف، وعبارات تغدق عطراً، ورداً بنكهة الحبّ.

ربما قاده اللاوعي إلى معنى الأشياء، نحو أصل الطبيعة وعناصرها، طالما أن الأشجار وفيةٌ لجذورها، وذاكرة الخشب لا تموت حرقاً.

قرَّر أن يخطّ بقلمهِ، سرد روايته، ملامح حبيبته، وصفها برائحة الحبر وزخرفة اللغة، وبهرجتها.

هو الذي يعشقُ سحنة الصفحات، وأنوثتها، بياضها، وسمرتها، صفاءها، ونقاءها، يعاملها برفقٍ ذكوري، وحرصٍ حذرٍ كي لا تتمزّق عبثاً، وتتلف، كأنها تيجانٌ زهرية تُكلّلُ رؤوس الملكات، وزهوهن.

ينقشُ عباراتٍ منمَّقة، استقاها من فكره الحرّ الطليق الذي يخوله الرسم بالكلمات على جدران غرفته، دفتر جنونه، مساحات إبداعه، تمرده على ذاته، والنمطية، ثأراً لطفولته التي ولَّت مع غبار أقدامه في ذلك الحيّ العتيق.

ندماً على لحظاتٍ لم يَسِمْ فيها قصائده على مسام حبيبته، مغطّياً جلد جسدها بحبر الورد، طمعاً في نثر حروفه على كل سنتيمترٍ فيها، ليكرّسها لوحةً فنية، مشروع حياته الأدبي، ومعقل هزيمته الكبرى في وجه القدر.

هي المشاعر إذا رُسمَتْ على هيئة كلمات مطبوعة، أو مكتوبة أضحت صكوكاً عشقية تدين مرتكبها، وتجرّمهُ بتهمة الحبّ العمد، وتؤكّد بالبرهان، والدليل القاطعين تورطه الحقيقي بلعبة قلبه المفخّخ بالغرام، والمطوَّق بسياج عينيها القاتلتين، المتكحلتين رفعةً، المصوَّبتين باتجاه عينيه الغارقتين بنشوة الإفصاح.

هو مفطور الفؤاد، ينبش تراب الماضي ليستخرج جوهرة كنزه، ذَهَبَ قلبه، حُبّه الموؤود منذ عصور.

بصحبتها يصبح الوقتُ رمالاً بين يديك، نكهة متعتك الخاصة، فرح الطفولة العائد من أزقّة الحيّ، فالسٌ أرستقراطي تمارسه عند أبواب الشرق، يأخذك إلى عوالم مرهفة بخطواتٍ متناغمة، ويقودك نحو ذاتك الحرّة، سهول أرضكَ اللامنتهية، رُبَىً شاسعة المدى خارج حدود دنياك، حيث تتّحد الأرض، والسماء بانحناءٍ عشقيّ مذهل، لتغمرَ النجوم كطفلك القادم من بعيد، وترتدي الشهب أمنياتٍ مشذبة بسحر إيمانك العاطفي.

هي أنتَ، الآخر، وربما أنت هي، مرآة القدر جمَعَتْ شتاتكما، روحين في كوننا المجنون، آثرَت الريح أن تحصدكما سنابل الله، ليأكل كل منكما خبز بعضكما، وتشربا كأس النهر الحامل مياه حقولكما، ولربما تكنس وجودكما كأوراق الخريف، تُحلِّقان بهدوءٍ قدريّ مُصوَّر بعين الطبيعة المراقِبة بتأرجحٍ دراماتيكي، أنتما لعبة الهواء تتطايران نحو حلم اللقاء على تلك الأرض، آلهةً خصبة بهيئة الجفاف، والهشاشة، ولون الموت المستحَق، لتلتقيا تحت مقعدٍ خشبي، تذروكما القُبَل، ويوحّدكما الشّبق، وتُبعَثْ فيكما الروح من عدم، لتتجليا طائرين عاشقين في ظلّ القمر.

توَّاقٌ أنتَ لسريالية الحبّ، وإيقاعه المتواتر، حين تقطف فاكهة أنوثتها من شجرة البدء، آدمٌ أنت، تُمسِكُ بتفاحة شهوتك للعشق، غافلاً عن سُكَّر لذتها المرير، وعذوبة سائلها المختبئ، معجباً بتكوُّر هيئتها، مهووساً بلون جلدها الوردي، متلهفاً لتذوق شهد لحمِها المكتنز بماء قلبك النادم على الفعل المخطئ في اللهفة، والمتسرّع في الوقوع بفخّ الحبّ الشائك المؤلم.

وهي حوَّاء المُبارِكة لتورطك المرتقَب، والمنتظرة لسقوطك في صهير الرغبة المواربة خلف أوراق التوت المصطنعة، خشية العريّ الفاضح أمام أعين روحك المثقوبة عقاباً، بقلبك المتورِّم حُبَّاً، ورسائلك الليلية المتعبَة من الترحال، واللااستقرار الحياتي، أنتَ ساعي البريد، والمرسِل ذاته، تجوب شوارعها، باحثاً عنها بلا تعب، تشحذُ عطف المارّة بنظراتهم، تسأل الأطفال، والعجائز عن ملامحها سيراً على الأقدام، تحاور الجدران، والأزقة، تحاول

الإمساك برائحتها عند تنهد المدينة، متسكّعاً، حائراً، هارباً من كل شيء إلّا... هي.

ها أنتَ، والحقيقة على الضفة ذاتها، وقد أطلقْتَ سرب الحمائم المأسور بداخلك، لقد أسقطْتَ حياء الصمت من توت الأكنَّة المعلن، دون أن تخدش زجاج نضجها بلا نزيف الثمرة من روحها، بل حملْتَهَا إلى قمة كبريائها، عابراً سُلَّم الماضي، لتخطو نحوها أميرةً بكعبٍ عالٍ، بسموها المخبوز بأناملك، ورِفْعَتِهَا المصنوعة من مجد بوحك.

مفتاحُ بابك بيدها، موصودٌ بأقفالٍ محكمة، رهنُ إشارتها، ربما ستوعز لك بالمرور من هنا، عبر مصراعيه المصمَتَين، ليُفتَح بهدوءٍ ملكيّ كأنه صدرك، ناثراً ورود العمر نحوها، جيشاً من الكلمات، فرحاً صيفياً يراقص سُحُب الفراشات المغرّدة لوناً، ربيع أيامك المخضرَّة في حضرة سلطتها.

***

وحيدٌ هذا الصباح، وكلَّ صباح إلّا من قهوته، يسبق الشمسَ إليها، يُعِدُّها بكسلٍ رجوليّ مُفخَّم، هو الذي توقظه الذكريات بوجعٍ صباحي كورود مثقلة بالندى، قطرات قلبه النازف، هموم أحلامه البكر، ضباب نفسي مكثَّف يتغلغل في حقول تفكيره.

أن ترتشف فنجانك بزهو الملوك، وانكسار العاشقين، تُرَتِّبُ أثاث نفسك، توضب أدوات رحلتك اليومية لتعلن بداية الوقت المخصص للحياة.

وربما تصحو لتكمل ما بدأته بالأمس من نقش الحروف على صفحات التجليّ، متجاوزاً اعتبارات الطقوس الفكرية، في

العمل ليلاً، مُستَهِلاً مشاعرك المضطجعة على أسرَّة الوجدان، موقظاً المونولوج الداخلي لعباراتك لإتمام الحوار الملهَم وحياً.

أنتَ من تذوّب أحزانك فيه، كقطع السُّكَّر المالح، ليزداد سوادها الكالح ويخبو بريق نضجها، وتفقد عذوبة حرارتها، وتزداد مرارة نكهتها، صبر جفافها، لتسقي تربة إلهامه، وطين تعثّره، علَّ الزهور تنبتُ من بين صخور أنقاضه، ويخضَرُّ الصباح بأعشاب الأمل الزاهية.

يا إلهي... كم مضى من تقويم الأيام، عبرَتْهُ الليالي، تُكَفِّنُ النوم، وترميه في ظلمات الأرق، يؤلمه ذلك العصب الحسّيّ للذاكرة الممتدّ من ركام الماضي نحو نخاع قلبه المهشَّم، يئنُّ عند أطلاله كقائدٍ مُصابٍ بشظايا الحبّ، ورصاص الاشتياق، محطّم الوجد، مبتور القرار، معلقاً بصمته المفجع، موجوع المصير.

هي الأرواح تحيا لتشتاق فقط... لا شيء سوى... الاشتياق...

لأنّ الزمن حطّاب القلوب، يقدُّ خشب الماضي بفأس التذكار، ويكسر عظام تكوينه بقوة الحنين، يلوي أغصان ذراعيه المفتوحتين للسماء، وينشد فيهما اليباس والموت، كي يشعل موقد ليله ساهراً، ورفات شبابه، حارساً لظلمة حسرته المولودة بعد مخاض التفكير، والتجربة.

يُحرّك جمر حاضره بمعدن قراره، يُقلّبُ حباته انتقاماً، متلذّذاً بطهيها الذاتي كردّ فعلٍ انتقائي، ربما هي لحم قلبه المشظّى، تلسعه نيران أحزانه، عند خطّ الاستواء العاطفي لشجنه، ذلك الجحيم المعاصر لحقبةٍ زمنية لم يتوقّع خلالها فقدان وجهة عواطفه، وتخبط سفينة ارتحاله بعد إعلان مُضِيِّهِ نحو ميناء

سرابي، بمنارةٍ محطمة عاجزة عن الإشارة، عصيّة على الوصول، مكسورة الخواطر.

ثمّة اعتباراتٌ وجدانية للحفاظ على قِدَمٍ، وتراث حضارة عشقنا، أن تحتفظ بكنز غناك المدفون في شغاف المشاهد اللحظية البطيئة المخزنة في شريطٍ سينمائي لفيلم حياتك، بطلهُ أنتَ، مُصَوّرُهُ، مخرِجُهُ، مهندس تجميله وموسيقاه، والأهم من كل ذلك أنك السرديُّ التقنيّ الوحيد القادر على صناعة نصّه، أو بالأحرى صياغته الحَرْفية، والحِرَفيَّة بأنامل تشكيلك، وهموم مساحاته الوجودية، وتأثيرها في مسرح واقعك، ودراما قصّتك.

في بداية الأمر، لم تبدِ أيّ مشاعر صريحة تجاهه، لكن إعجابها، وزهوها بما كُتِبَ لها كان جليّاً مشرقاً، لامَسَ زجاج روحها النديّ بأنامل دافئة واثقة حنونة التعبير، وأيقظ بداخلها أحاسيس أنثوية مكابرة يعتريها الفرح، والفخر المعلَنَين على محياها.

كيف لا..!! وأنتَ من أعاد تكوين طين هيئتها، وفصَّلها على مقاس طموحه وأحلامه، ونَقَشَ فوق يديها حنَّاء لغته وحروف غزله، وأنفق لياليه في صنع عقدٍ لجيدها من قِطَع النجوم، وصخور القمر.

هو الذي سعى دوماً إلى لملمة صوتها، وضَوع ضحكتها، والاحتفاظ بها في مكمن تذكاره، وأدراج مكتبه، خبأ شعرها من قسوة الريح، وعانق قدَّها خشية الالتواء نعومةً.

تَحمِلُ في طيّات تفكيرها تقديراً لذاته، وتَكِنُّ له كل المحبّة، والمودة طوال الوقت، واليوم تدين له بعرفانٍ على ذلك الكمّ من

الجمال المُقدَّم على طبقٍ من ماضٍ، الآن عصر الاحتفاء بها كأنها إحدى العطايا التي وهبتها السماء له، مطراً يسقي وحشة حاضره، شمساً تدفّئ ليله القاسي، وتذيب جليد السنين المتراكم منذ العصر القديم لصقيع غربته.

ويبقى السؤال في عينيها لماذا انتظرْتَ كلَّ تلك السنوات لتفصح بما تخفي..؟؟!!!!

ألا تعلم بأن كتمان المشاعر عبر الزمن يضخِّمُ الإحساس بالأشياء أكثر، ويخلق بداخلك فجوةً عاطفية جاذبة تستقطب رياح الأمس لتلهو بحُريَّة في ملاعب نفسك، تتّسع بمرور الأيام، وتتمدّد لتجتاز حدود الإدراك، وتتغلغل في الجزء اللاواعي من حياتك، وهي وعيك!!! لتعيشها بألمٍ مضاعف، وإدمانٍ متواصل، تحياها بسريالية حتميّة، وأزليّة موثَّقة، تجلد ذاتك بصبرٍ جميل، وتجلسُ على كُرسيٍّ في حضرة الورق، تتقيأ حبر أوجاعك، لترسم خطوطاً لامنتهية بفوضى منمَّقة، ودوائر حسّيَّة هي مسارات دهليزية لأثر القلم الملوَّع حُبَّاً.

كيف لك أن تحتمل مرارة الصمت، والسكون، ذلك البركان الذي أخمدتَهُ على الرغم من صهارة الروح المشتعلة شوقاً، وحمم الفؤاد المتسارعة فوق رُباك، تلك السيالة الشعورية الممعدنة المكتسَبَة لاهتمامك بدراسة الصخور، وآلامها، ربما تقمّصْتَ صلابتها، وجمودها، قوتها، وجفافها، سحنتها، وصمتها، وأصبحتَ متأثراً بعمل الطبيعة وأنوائها، فاكتسَبْتَ حكمتها، واستقرارها، لجم انفعالاتها، وسكوتها الدائم، وغَفِلْتَ عن عصفها المزمن، وتبدل مزاجها، وتقلُّب طقوسها، متبنياً تعبيرها عن مكنونات ما

تحمله في جوفها من كوارث، وتغيرات تزعزع كيان الوجود وتهدد بالإطاحة به في الوقت المناسب.

ها أنتَ أمامها جثة هامدة، أطلقَتْ مخزونها العاطفي، ينابيع حواسها، وأزاحَتْ تلك الكتل الجاثمة على صدرها، جلاميدُ معنوية ترزح فوق لسان حالها، منهكةً على أثر الصراع الدائر بين الإدلاء بالاعتراف، وأناقة الحروف الملقاة على مسمع إنصاتها.

قُم بدعوتها نحو الخطوات، وأنتَ متعبٌ من السعادة، تتصبب ملحاً خالياً من التردّد، عيناك نارٌ مضرمة في غابات أنوثتها، تسكنهما روح الماء، وبيَدِك سُكَّر ضفائرها، نزيف الشمع أصابعها، ملوَّع من قسوة حرارتها، اسكب الخمر فوق شفتيها، لتعصر كرزها عنباً، رذاذٌ طفيف يغسل وجهك هو صوت رائحتها، رحيق لحمها المتعمّد بنثرك.

اكنس أوراقك الخريفية عن رصيف اللقاء، واجمعها بحرصٍ أنيق يجاري هشاشتها، ورقَّتها، بحذرٍ منسَّق خشية عطبها التقاطاً، وأعِدْها إلى مستقرّها، برفقٍ مدروس إلى تربة ارتياحها، مكمن وحدتها، موطن رغدها، هانئةً بحالها، تغفو ذابلةً كوردٍ مبتورٍ، مستسلمة لمزاج روحها المتكسِّرة، مهزومة البوح، محترقة بلظى الأنامل المرتعشة.

أنت العائد من صبا الأيام، وجنون التاريخ، مُحَمَّلاً بشواهد حضارية، تتيح لك الإفصاح جهارةً بذلك المخزون المكدَّس من الحياء الروحي، والعاطفة المودَعَة في الضلوع المقابلة لقلبك المفتون بها، تذرو كلماتك، وتبيعها بلا ثمن قرباناً لأنوثة قاسية الجمال، لطيفة الحدة، متسعة الحدود، بعيداً عن طوق اللغة

واختزال معانيها، بالقرب من قهوة مزاجك، وموعد الإيقاع المتخبّط لنبض قلمك.

سعيداً بانزياح تلالٍ من الصبر الجاثم فوق صدر صمتك، مبتهجاً بفرحة فارغة إلّا من النشوة، ظافراً بربيع زهورها المباحة لأنفاسك، طائراً بلا أجنحة يرفرف في سماء مدينةٍ مهجورة من الشغف، والحركة، شاباً نذر نفسه للحب راهباً وارتدى أيقونة الأدب وسَاماً معلَّقاً في عنق عهده، وقد أقسم أن يصون جوهرة الحبّ، وكنز المحبة ويحفظهما في ذلك الصندوق الخشبي لإيمانه، هو المعتكف في جبال تأملها، المصلّي قدسيّةً لإله الطبيعة، والبشر، الطالب المرتجي لدوام قلبه في إسعاد روح محبوبته، والارتقاء بها إلى سموٍّ متعالٍ يليقُ بحجم رفعة أمانيه، ويناسب لون الإحساس الروحي لديها.

أمسك يدها، وراح يتنشَّقُ مسام راحتها، تلك الثقوب المتصلة بممرّاتٍ عطرية تفضي إلى أقبية الروح، حيث الهواء النبيذي يجول عبقاً، وغابات الصنبور الأنثوية تتحاور حبّاً عند أنهار العذوبة، يلثمها بحواسِه كأنه يودعها يأبى التخلي عنها، هو الذي تربطه علاقة وطيدة مع الروائح الزكيَّة للأشياء، رائحة الأرض، والمطر، القهوة، والخبز، والصباح، الياسمين، ودمشق، هي وعطرها الذاتي...

شَعَرَ لوهلةٍ بأنه يتقمص دور "جون باتيست" في فيلم "العطر"، ذلك المجرم السفَّاح الذي أصبح قاتلاً لفتيات المدينة العذراوات، بغرض صناعة عطره الخاص من أجسادهن العارية لينجز بعدها هدفهُ في خلق عطرٍ بديع مدهش تسقط أمام روعته،

وفوحه كل المشاعر السلبية، ويعود الإنسان إلى فطرته، وغرائزه في نشوة جمعية، حيث لا وجود للتفكير، والحسبان، لحظاتٌ خالية إلّا من الجمال.

أعجبَتْهُ عبارةٌ قرأها في شريطٍ الترجمة السينمائي للفيلم ذاته، لم تمر بسلام في ذهنه، استوقفَتْهُ ملياً، عَبَثَتْ في هشيم قلبه، وأفرزت خيالاً جامحاً بعد أن حرَّضَتهُ على الخوض في غمار الذاكرة:

"روح الأشياء تكمن في رائحتها"...

فعلاً، أدركَ تلك الحقيقة، وشَعَرَ بأنه يلامس روحها، ويلتقطها بأنفاسه، تمنّى لو استطاع جمعها، والاحتفاظ بها في آنيةٍ زجاجيةٍ مصغَّرة تختزل كيانها، توقظ دوماً ذلك الماضي العابر في باله عند ارتحال العطر في حواس حاضره.

يضيف هو: "رائحة الأشياء هي جواز سفرنا نحوها، صحوةُ ذاكرةٍ قد غَفِلَتْ، تنبيهٌ حسّيّ موسيقيّ بإشعارٍ معنويّ للمادة يقرع باب الصور، والأشخاص، ليحملهم إلينا على هيئة أطياف عَبِقَة تكره النسيان...".

هو بحاجةٍ ماسّة إلى مطر دفئِها، لتلك اليدين المكتنزتين، والنظرات الحنونة القاسية، وهي تبحثُ عن قلبٍ ينبضُ لأجلها، يحتضنها كطفلةٍ تائهة في أزقة العمر، يداعب ضفائر روحها بمتعةٍ فائقة، يحملُ عنها هواجسها المثقلة بالتساؤل والاستفهام، يطالعها كأنه يودعها، وهو الذي التقاها منذ قليل.

بعض اللقاءات تحمل صفات الوداع وإن كانت تحت مسمى آخر، فهو ليس إلّا لقاءً توافقياً بين قلبين قررا الانتحار، والانكسار

من فوق منضدة الموعد لتتفارق الأجساد، وتبقى الأرواح ساكنة في المكان تأبى الرحيل عنوةً عن مرآة الحقيقة.

لكنّه في موعده هذا، قرر أن يبدأ مشواره بنظرة أوقدَتْ نيران السنين، وأعادَتْ هيكلة مشاعره المتفرقة تحت أنقاض الأيام.

وهي المرتبِكة الحائرة من وقع الكلمات على مسمعها، تُرَدِّدُ مونولوجاً على مسرح شرودها، تفكّر به، هو الصديق العتيق، ذاكرة مراهقتها، وعبثها، براءة لهوها، وحنين الحاضر لسَلَفِهِ، شريك الأوقات اللذيذة، رفيق الدروب المعبَّدة بأقدام القدر.

تُفكّر في جنونه، ووفائه المستمرّين، كتمانه، وإخلاصه، مقدار حبّه لها، ذلك الكمّ من المشاعر الخفيَّة بين جدران قلبه، وقدرته الهائلة على كبح جماح كلماته، ونثرها على الورق.

"لماذا لم تبح بأنين روحك المنصهرة، وتركتها لسنواتٍ تعاني من مرضٍ سقيم يقوّضُ أركانها، ويدمّر حريتها..؟؟!!

كل ما في الأمر، بضعُ كلماتٍ تتفوّه بها لترتاح، وتنزع عنك هموم الحبّ وشقاءه، ربما تخشى الصدود، وانهيار الحلم، تحطُّم صرح عشقك، وبهتان ألق نجوم عينيك، لكني أطمئنك لا زلتَ جميلاً ناصعاً، شفاف الصدق، والعاطفة، تلمع الحياة في جوفك، ولا زالت أعراض العشق ناضجةً على هيئتك، ذلك الحياء الذكوري المشتهى بنظراتك الصامتة الموحية بالكبرياء.

سابقاً، كان العمرُ طفولةً، يافعاً، واضحاً، مسرحاً عابثاً نمارس فوقه أدواراً عشوائية بقلوبٍ هشّة، مرنة، ومتاحة دوماً، نمسكُ الفرح لعبةً، والقرار أرجوحةً تهتزّ بلا ريبٍ، أو وَجَل، كانت الضحكة أنقى، والابتسامة أصفى، والحديثُ في اتجاهٍ واحد،

بلا إشاراتٍ للمرور أو التعجب، للقُبلة معنىً منفرد، للّهفةِ روح بريئة، الانعتاق من كل شيء مذهب وجودي، والحكاية تستمرّ، والرحلة لا تتوقف.

كيف تضعني تحت سطوة سيف القرارات؟؟؟!! تطالبني بقلبٍ تشتريه بالصمت وبعض الكلام، بيقينٍ ساطعٍ وثقةٍ عمياء بأنني لوحةٌ ما زالت معلّقة على حائط قديم بجمودٍ نفسيّ، وحركيّ، لا شيء سوى الغبار يعكّر صفوها عبر الزمن القتيل، وأتيت أنتَ لتمسحه بأناملك، ونفثة هواء من زفير فمك، لتستعيد حقاً وَهَبْتَهُ لذاتك، والرجوع خلفاً نحو ماضٍ تَمَلَّكَكَ، واحتلَّك بشرعية مطلقة لا ضير فيها.

سنواتٌ بأكملها قد ولَّتْ، وعوامل الزمن صَقَلَتْ أجساد أرواحنا، وشذَّبَتْ ملامح تضاريسنا، تلك التجربة العمرية لنفوسٍ خَبِرَتْ التجارب، والأحداث، نحتَتْ قلوبنا، وعواطفنا البكر بمياه الآخرين، ورياح الغرباء، عَصَفَتْ بنا أعاصيرُ بشرية، وكوارث شعورية، براكين غضبنا، وزلازل انكساراتنا، ضغوطٌ، وتراكمات جراء حركة الطبيعة الإنسانية، وتحوّلاتها، نحن ضحايا بعضنا البعض، تجمعنا تلك السلاسل القدرية التي إذا ما سقط أحدها أحدثَتْ خللاً في سير، وتواصل الرتابة، والسياق الحياتي لدروبنا، وغَيَّرَتْ مسار سعينا المرهَق نحو الأمل، والخلاص، نحنُ أسرى الوجود، وأطياف العدم، الملوعون بقلوبٍ تنبض لأجلنا، الناكرون لأخرى تحيا بنبضنا.

أنا التائهةُ حقاً، أمام صدق الأحاسيس، ولعبة القدر، أسند رأسي براحتيَّ، أراقبك، وأفكر، كم تحمّلْتَ عناء، ومشقّة اللّيالي

الطوال، أن تحمل عبء الحبّ على ظهر قلبك، وتحفظه، وتصونه كوطنٍ جريح، بسلاح الكلمات، وحبر الصمت المقفل.

أهو الحبّ من يزودنا بتلك الطاقة الجبّارة، والمخزون الزمنيّ الهائل من الأمل، لتستمدّ منه صبرك، وسكونك، متحفّظاً على التعبير بأي طريقةٍ توصلك إلى معبر قلبي المعشوق.

ها أنتَ قد دعوتني لتسكب ماء روحك على يديَّ لأتعمَّد بقطرات الشوق النديَّة النازفة من جبين سُهدِكَ، واحتراقك المرير، لأشاركك أحزانك، ولوعة الفقدان المؤلم جراء ما اقترَفْتُهُ من جمالٍ، وغواية أعَاقَبُ عليها بالأشغال العاطفية الشاقة، والأسر داخل حدود عباراتك مدى الحياة، أحمل صخور قلبك المحطَّم، وفُتَاته، ألملمها أسفاً بحرصٍ شديد، خوفاً من سقوطها مجدداً من ذلك الجرف الشاهق للعبارات.

أنا المتعَبَة يا صديقي، من هول المفاجآت، ومواسم الكآبة المسمَّرة، من اختلاج الروح، وسقمها، وجدلية العقل، والوعي، محطّمة الفؤاد، مشرَّدة التفكير، طفلةٌ عابثة بجسد فتاة ناضجة، تحترفُ الرقص فوق جثث ضحاياها، وهي المكابدة لعصف الأفكار، والأنواء الوجدانية لذاتها، عارية الجسد في غاباتٍ ماطرة بالحرية، تحاكي سعي الأشجار في الامتداد عالياً، لأكون أنثى باسقة تطال الهواء المسافر نحو النجوم، وأستريح تحت فيئها من عناء الرحيل نحو المجهول.

أبحث عن رحلة تحملني إلى مكانٍ مُتْرَفٍ، كالواحة الغنَّاء وسط جفافٍ مُحكَمٍ، لأستحمّ بماء ذكوري فيَّاض، وأغسل شوائب العمر بعذوبة الإحساس تحت أشعة شمس الاهتمام بذلك العريّ

المريح للنظر، والموقظ للرغبات.

تعال الآن لنمضي، ونعطي للوقت وقته الكافي، بعيداً عن الحسبان، ربما نكون معاً لنختبر الأحزان، نترفع عن ذاكرة النسيان، ونخوض تجربةً نبدؤها باسم المحبّة والعرفان، ربما سأمسح ثقوب قلبك بأناملي، صديقي أنتَ، والزمن لا ينسى، سأشرع بابي لك لتدخل بلا استئذان، وتذكَّر أن ضحكة وجنتي هي دمعة في البال، سنرتحل في سفينة الأيام، علَّ القلوب تنضج كثمارٍ صيفية على شجرة المواعيد، نقطفها بمباركة الإله، وحضوره، لنحاكي قصّة الخلق الأولى، أنا حواء الحُبلى بالأنوثة أنتظر مخاض شهوتي، وأنت آدم الملوَّع بصمتٍ، الساكن في شجن الحكاية، والمؤرِّخ لذاكرتك المستقبلية.

هَلُمَّ بنا نجوب الطرقات، ونشرد في الأزقة القديمة، نلهو، ونركض، ننطلق نحو اللاشيء باتجاه الفراغ واللامكان، ربما نتلاشى بعواطفنا، وننصهر، نتفكك بتناثر فوق الأرصفة كمعنى الخريف، وأصله، ذلك التسكُّع المزاجي بقرارٍ لحظيّ نتقنه مشاويرَ في أحضان المدينة العجوز".

كانت عاشقةً لذاتها، غامضةً، واضحة، يكتنفها السؤال، والفهم، تهوى المغامرة، والحوار، تتقن الصمت جرحاً، واستفهاماً، صادقةً إلى حدود الكذب، وكاذبةً بصدقٍ غير مفهوم، تفوح عبيراً كورود الحدائق المنسية، عبثية بفوضى مشتهاة، مُمتلئة الغواية لدرجة الشبق، حسناءُ تجرح الماء لينزف صارخاً متألماً سائلاً برائحة الشهوة الحمقاء فوحاً.

تساورهُ صورتها لتنهش لحم ذكوريته، يستذكر رائحة الحبّ،

ليستعيد عبق اللقاء، ومشهديته، يطهو الحروف داخله بنار الفراق.

هو المعلَّق بحبال الروح المبتورة قهراً، المُنهك من التذكار عنوةً عند عتبات الألم، المشتاق لقناع ضحكتها المزيّف.

تصفعني لمسة الهذيان أمام احتراق سُكَّر الأنامل، تسرق لون النبيذ النسائي، ولكبرياء أظافرها إغراء، وارتحالاً، عشقٌ لمتاهات كفها، لهمساتِ ضوء يولد من رحم أصابعها، لدماء عروقها تتمايل خلف زجاج يديها.

كمَلِكات الزمان الأخير، بحضورها الأرستقراطي المتواضع في ظلّ المكان، وفخامة الحبّ المُبجَّل، تدعوها إلى الانعتاق من المكوث وبدء المشوار نحو شيء في الأفق ترونه سويةً، ولكن لا يستطيع أحدٌ الإفصاح عنه، لا تدركان حتى معالم طريقكما المرصوف بالأمل، والمُحاط بالخيبة.

أنعبر هذا العمر معاً؟

لألقاها عند الجليد المعمِّر بيننا، كأغنيةٍ عاشَتْ معي في وحدتي، كآخر وجهٍ يضمني قبل الموت...

هي التي أوقدَتْ نار الوعد، وأيقظَتْ سُبات المواعيد المؤجَّلة.

تُمسِكُ بتلك اليد، وتقودها إلى المجهول، نحو جنون المدينة، والقلب، وتمضيان برفقة فرحكما، دليل رحلتكما الموجَّهة صوب الحياة، والمعنى.

نتنفس أكسجين الارتياح بعد الاختناق المحموم بالإدلاء، حين انسَكَبَ ماء حنينكَ في جرَّة فخارها، بجرة قلمٍ أرَّقَتْ أيامك..!!! وصار البوح حقيقةً جليَّة، مصيدةً أعدَدْتَها لنفسكَ،

لتقع في براثن أنثى يجتاحها الغموض، والجدل، رافعةً مستوى التعقيد، والعبث إلى درجة البساطة، والانسيابية.

امرأةٌ تشاركك حُلمك بتجلٍّ عميق، تنزع عنك ثقل المسافات، وحِمل الذكريات لتهبك عبء روحها، وقسوة جمالها المغلق بعلامة استفهام، الممتدّ بنقطٍ متعددة على سطر الغواية...

مشينا فوق دروبٍ مُزهِرة وكأننا نحبو للمرّة الأولى، طفلين بخطاً متثاقلة القلق والفرح، والبهجة، عند حافة الرصيف المتقطع بتدرجٍ لونيّ تراتبيّ، بين الأبيض، والأسود، ليتوافق وقع أقدامنا مع لونٍ محدد، ونخلق توازناً فيزيائياً يكسوه اللهو، والحرية بالعودة إلى طقوس طفولية بريئة تُعبّر عن مزاجية رجعية، وحنينٍ إلى ماضٍ عالقٍ في أعشاش ذاكرتنا.

في معظم الأحيان، عندما يصبح أثر السعادة هائلاً في الحجم، والتكوُّن، تشعر بحاجة إلى التعبير عن مدى عمقه، واتساعه في ثنايا روحك، بسلوكيةٍ بدائية تعود بك إلى مراحل عمرك المبكرة، صفاء قلبك، وعفوية تصرفاتك، أو بالأحرى إلى أصل تكوينك، وتلقائية مزاجك، بعيداً عن الحسبان، والتأويل لأنك بذلك تكون قد لمسْتَ نواة قلبك، جوهرة ذاتك المختبئة في خشب إحساسك.

حين نعشقُ بكل طاقتنا، وقوّتنا، بضُعفِنا وارتباكنا، تتكوّن الحقيقة الصرفة في بالنا، ونُدرك أن الزمن يهبنا أجمل عطاياه، ويقذف بنا إلى فضاءٍ أرضيّ الملامح، سرياليّ الوجود، لنفقد التصاقنا الدائم، والتزامنا الأبدي بسبب الجذب الطبيعي للأشياء، لنكتسب خفةً، وارتقاءً مادياً ينحو بنا إلى الانعتاق عن جفاف

الحياة، وجديَّتها برشاقة، ومرونة روحية تتيح لنا التماهي، والتجانس، والانصهار ضمن هالة الحبّ، وكينونة الحبيب، لتتوحّد المادة، والروح في عالمٍ آخر، وتُختَزَل في شيء واحد يحاكي عمقك، وضدك، مرآة نقصانك، وفيضك، قرينك المنصِت لك دوماً، المهتم بتفاصيل لا تعني أحداً، المراقِب لثوانٍ تهرب من مؤقت عمرك، الملاحظ لمزاج نفسك، وتقلباتها، عينك الثالثة التي ترصدك، عدسة تصوير مشاهد حياتك على مسرح التجلي.

هل تحملُ حياتنا أكثر من ماضٍ أم هو الماضي نفسه...؟؟!!

يحتلُّ مكانه المعهود في أحقاب عمرنا، ونبدأ بعدها العدّ التنازلي لإعلان الحنين المزمن بجرعاتٍ قوية تخفف عنا آلام حداثتنا، وعصرية طباعنا، فالعودة إلى الوراء ما هي إلّا دعوة للشفاء من حاضرٍ سقيم، وزمنٍ مصاب بتآكل الأيام هراءً، هروبٌ مصطنع عبر دوَّامة خفية، نفسية الملامح نحو ما تدَّعيه من جمالٍ وصورة مؤرشفة لأحداث، وأشخاص أغلقوا الأبواب بمفاتيحهم، تركونا وحيدين تعبُر بنا المراكب بحور الوقت، وتجتاز محيطات الحقيقة دونهم.

في شوارع المدينة، وحاراتها، كان العبثُ معها سحراً تمارسه بذكورية طفولية تجرّدُكَ من ثوب الالتزام، والقيود لتمنحك قسطاً كبيراً من الخيال والمساحات العاطفية.

أنتَ العاشقُ المولَّه بأهداب كُحلِها المرتَّبة كريشة حبرك الفارَّة من جسد أصلها، المتأرجح بخصلات شعرها النبيذي الممتد في أديم الأرض جذوراً.

مفتونٌ أنتَ بسحر ضوئها، هي شلالُ تدفقٍ للحبّ، واللّذة،

اكتمال القمر في ليلة مظلمة، بجِيدِهَا المطوَّق بعقدٍ من النجوم، تطوف حولها كواكبُ، وأقمار بصورة سريالية مدهشة، مليكة عمره، عشتار روحه القابضة على أغلال قلبه، وأصفاد أسره.

خلال علاقتك بأنثى، على سبيل الحبّ أو الصداقة، أثناء عبور كليكما للآخر، والاقتراب من هالته الروحية، ومسِّها بجاذبية بشرية، تُختَزَلُ طاقة الكون فيكما، ويدرك بعضكما البعض، لتستنهض بداخلك براعم الأنوثة البادرة التي تنمو، وتتجه نحو شمس الآخر، بينما تنساب قطرات الذكورة المختبئة في تربتها لتروي ظمأها، وتبلّل براعمه كي يُزهِرُ الجمال على أرضكما.

إنّه عبثُ الحُبّ، ولعبته، سحره الكامن في قدرته على شحن خلاياك بالحياة، وزيادة مبالغة في جعل قلبك نابضاً بروح السعادة المتاحة.

صريعٌ ذلك القلب بطعنة الرمش القاتل إجفالاً، هو الأعزل الملعون بقيود الهوى، كلما نزف دمه ارتاح لفرط الألم، جراحُهُ شفاهٌ تئنّ حين يجتاح ثغرها شهقة الوريد.

يشتهي القُبَلَ ليلثمَ كرزاً خمرياً لامعاً قد نَبَتَ عند حواف مبسمها، فاكهة نضجها، لحم شجرها المُحاصِر لعزلته الذكورية، هي المتسكّعة في غابات ضياعه، عاريةً بجروحٍ تشوب حنطة خبزها، وأشواك منسيَّة في دفاتر ضفائرها، تدوس فوق تراب زجاجه ليُخدَش إسفنج قدميها بإبرية أحاسيسه، وَحِدَّة مشاعره.

هو سيد الكلمات، والشهوة العمياء، يطالعها بشوق المسافرين، يودِّعُها حين يلقاها بتنهُّد الحنين لمن عبروا في محطتنا، ورحلوا، أحياناً تكون أنت متسوّل العاطفة والحبّ، ترتجي

بضع نظراتٍ، أو كلماتٍ تحتاجها لتحيا، وتمارس الحياة برغبةٍ، وأمل، تشحذُ قلباً عند قارعة الطريق، تلاحقه كي يلتفت، ويزوّدُك بالاهتمام المؤقت، تتسوَّل نقوداً شفوية، وربما لمسة نبيّ تَمُدُّكَ بجرعاتٍ إنسانية عظيمة ليغرق قلبك بالفرح، والحيوية، بَيدَ أنَّ معظم العابرين هنا، بخلاء العطاء، كاظمو اللهفة، أمواتٌ بأقدامٍ تتحرك، حقائبهم ملأى باللامبالاة، قلوبهم محشوة بالإهمال، فولاذ أرواحهم عصيٌّ على الذوبان.

يسترقُ النظر إلى عينيها، تلك الشاردة في أزقة قلبها، وحزنُ دفئها المشع في المكان، يراقب تسكّع روحها بالقرب من اشتعاله الآني، ويشتهي التماهي مع خطواتها.

كيف لتلك الخُطا أن تتحرَّك دون أن تمشي، تسير دون اتجاه، وتتوه من غير ضياع؟؟!!!

أنتَ بقربها، تراقب همس أنفاسها، وتلاحق ديناميكية إيقاعها، لتحصي ومض جفنيها، وتشقى باشتياقك لها، تلعب ريح الوقت وأنواؤها بينكما، يتصاعد تواتر القلب، ورعشته، صمتٌ مطبقٌ على شفاهنا يتلو حكاية القادم ليمنح لأرواحنا هدنة مسائية تزيح عنّا ثقل اللقاء، وعذاب التفكير.

تُمسِكُ زنده بالتفاف أصابعها، تتكئ قليلاً بخفّة ذراعها، ليمنحها الأمان المؤقت ووتيرة خطواته المبتهجة، بطفولية فطرية ودماثةٍ أنثوية توحي بجانبٍ عميقٍ من الدلع، والدلال، والجمال الغريزي في قلب أنثى تحبّ الحياة وتعشق الحلم.

ليت العمر مشوارٌ نرتحلُ فيه بصحبة من نحبّهم... لا يشاركنا فيه أحد...

نحياهُ لمرّةٍ بتذكرة حياةٍ، بوجهةٍ واحدة، نعبُرُ غيم الطريق برشاقة الحالمين المنتصرين، بفرحٍ حظينا به كأننا داخل فقاعة عشقٍ تَقِلُّنا إلى المجهول.

من المؤكّد أنك تصبح أجمل، وأنقى، وأفضل حين ترافقك في دروبك، وخطواتك – كما المرأة – يشعر الرجل بذلك "الأمان العاطفي"، والرفعة المعنوية بوجودها، هي المصدر الوحيد لقوّة الدفع الذكورية نحو السعادة، والحبّ، والمحرّك الأساسي لمياهه الراكدة عند ضفاف الروح.

– 5 –

"يا جحيمية القسوة، أما آن لذلك العطر أن يهرب إليّ،
لا أريد أن أفتح أبواب عيوني، وأنهض، خشية ألّا تقودك الريح نحوي،
أقيمُ صلاة العاشقين، وأتمتم كلاماً لآلهة الحبّ، أنا الناسك المتعبد في محراب غيابك".

أمشي في شوارع دمشق.. مُحَمَّلاً بحكايتي الإرثية في أصلها، قبيل اللقاء بعصور، تعود إلى زمن اللاحياة حين طُعِنَ القلب بأهدابها يوماً، وسقط صريع الوجد، والصمت، فالروح غضةٌ، والأيامُ ترفٌ حياتيّ أحياها.

وكان صوت اللوز في شرودهما، نداءً عاجلاً لماء قلبه العذب الفتيّ، وتلك النظرات العفوية تبعث سيالة كهربائية تعبر عروق أعصابه لتصيبه بالوَلَه، والشهقة اللذيذة للحبّ.

ذات يوم كانا غريبين، التَقَتْ أكتافهما دون أن يكترثا، واليوم نزفّ العطر على رصيف اللقاء، صرخ شيءٌ في داخله: "شكراً.. أيّتها الحياة...".

تحضنهُ رغبةٌ في الهمس، أن تحظى الكلمات بطبع النسيم، وتتراقص الحروف على أنامل الصدفة.

يحبّها، ولكنّه دائم الشعور بسلطة المسافة بينهما، تأخّر الموعد لسنوات، كان من المفترض أن يسرقه حينها من جيوب الأيام.

لديه عقدة المسافة، والزمن ضمن دوامة العلاقات البشرية،

عليك أن تضبط أبعاد كيانك، مجال روحك المتشابك مع الآخرين، حيث تتقاطع هالتك الشخصية مع هالات من حولك، تسيطر على مسافة الأمان اللازمة التي تقيك هول الصدمة بمقياس خبرتك، وحدسك لتتفادى حوادث معنوية تخلف وراءها انكسار القلوب بشظايا الأنا.

وأيضاً ستحتاج لضابط توقيت زمني تقيس به المدى المحتّم لعلاقاتك، ومزاج مواعيدك، وقراراتك، كي لا تصل بعد حين أو يعبرك قطار اللقاء المُسيَّر دون توقف، حينها تكون ضحية مؤامرة فيزيائية طبيعية، مفجوعاً بعنصر السرعة الناجمة عن المسافة، والزمن، تائهاً في محطة الانتظار الفارغة إلّا منك.

أنتَ من أتيت متأخّراً بعقدٍ زمنيّ عند مشارف العمر، تحمِلُ قلباً معطوباً بثقوبٍ روحية جراء صدأ المشاعر، وتآكل معدن البوح، محكوماً بسطوة النوى اللامقصود، سجين أهدابها، أسير عطر صباها، وصورة حضورها، هي النجمة المفعمة بالضوء في فضاء لياليك، بطلة حكايتك الدرامية.

اليوم، يعبُر طرقاته وحيداً إلّا منها، محمَّلاً ببازلت ذكراها، مسكوناً بصوت روحها، فارغ المعاني، واللغة، صامتٌ إلّا من ضجيجها.

هنا داسَتْ فوق حجارة الزقاق المنمَّقة بِحرَفِية التراص، والهندسة، هنالك شمعٌ على الجدار جراء نزف أناملها، وذلك الدكان مقصدها في كل عبور، ثمّة مخبزٌ متواضع لسدّ رمق الحبّ، والجوع العشقي لتذوّق عجينٍ مخبوزٍ باللّذة، والعِشرة، يتناولان لقمةً مالحة الطعم، والذكرى، للشروع في عهدٍ يصون

علاقتهما لإعلان وفائهما وإخلاصهما ضمن علاقة مجبولةٍ بخبز المحبة، وملح الاحترام.

أقسَمَ في قرارة نفسه أن يخطَّها فوق جدار قلبه، نقشاً أثرياً بلغته السريَّة، حروفاً موجعةً على رخام أيامه...

في حياتنا عامةً، لكلّ رَجُلٍ أنثاه الأوحد، تُمسك قلبه بيديها، تتملك أحلامه، وتحيا في تفاصيل ثغراته، تنهل من دم روحه لتطلي أظافرها بنزيف الورد، تسرق أجمل أيام صباه، وتأسره في زنزانة وجودها.

هي القاتلة الصامتة لآماله، تهديه شوك أزهارها، تكسر زجاج شعوره، هو المكبَّل بحبال هوائها، صريع فتنتها، وهي السراب البعيد، إذا ما اقترب منه تلاشى في العدم.

كثيرٌ من الأشياء تقع تحت ناظريك، وتتيقن أنها مِلكُكَ، ضمن نطاق سيطرتك، ولكنّك لا تستطيع أن تحتفظ بها لنفسك، كونها عصيّة على الترويض، ممانعةً لصك الملكية خاصتك، رافضة للانطواء تحت جناحيك، لأنها لا تشبه الأشياء العادية في صفاتها وخواصها، ربما تكون هلامية الملامح، خفية الظهور، حورية عمرك الماضي، أنت صيَّادٌ منزوع الشِباك، بقاربٍ مثقوب آيلٍ للغرق في بحر أنوثتها.

هي ملح رجولتك، ميزان قلبك اللامتوازن، محطةٌ تقف عندها لتستنهض عمرك، ومشاعرك بحبر الوقت المنصرم، وتستذكر فرحاً حزيناً أصاب روحك، شهقة كلماتٍ تعلو طيوراً فوق رُباها، شمسك التي لا تستذكرها إلّا غروباً من هول زخم الألم المسكوب لجيناً فوق جراحك.

يجلسُ عند شاطئ العمر، تحته رمال أنقاضه، مُشرِعاً للأمواج قلبه، مغمض العينين، خشية ريح المسافات أن تعبث في صدره، تتجمع ليَخِفَّ، ويعلو نحو مشاهد حَرْقَتِه، وشجنه، مصغياً لصوت تراطم الماء، والرمل، موسيقا الطبيعة، نغماتٌ إيقاعية متتالية توحي بالخلاص، والنهاية، مدٌّ وجزرٌ، تردد الأمواج في التوغل، والانسحاب، كأنها تريد أن تغازل البر، وتشي له بأسرارٍ كامنةٍ باح بها المارون هنا، وتفرغ رسائل أودعها أصحابها في زجاجاتٍ مبعثرة، محكمة الإغلاق بفلّين الأمل، رمياً كأنها سهامٌ اقتلعوها من ضلوعهم لتبحر بعيداً حيث هنالك من ينتظرها في مكانٍ ما، شاطئ الموعد، والصدفة، والأمنيات.

كيف يفصح للبحر وهي عروسه، يعرفها من رائحة الصيف المرتاح على جسدها، زاحفاً ليلمس أقدامها الممسوحة برماله، ليهرب الملح من مصيره، ويزداد عذوبة، محاولاً الإمساك بشمعها الحنطي المختبئ تحت أطراف الدانتيل المفرَّغ ترفاً، مرتفعاً نحو صوان ركبتيها بشقّ الأنفس، مشنوقاً بحبال أناملها، متدلياً خلفها، متعباً من شقاء إغوائها.

يعلمنا البحر دوماً، إخفاء آثار من عبروا ويمحوها، يغسلُ وجه الأقدام، وذكرى العشاق المنقوشة على صفحة قمحِه، بماء الصحوة، وديناميكية المدّ، ومزاجه، ومدى إصراره على الوصول إلى مبتغاه من الطغيان، يحصدها، ويجمعها، ثم يخفيها بسحرٍ كوني، ليهدم قلاع الحبّ ويدمّر ذاكرة الرمل منسحباً بجزرٍ خاطف، مختبئاً في ظلّ نفسه، غارقاً في وحشة الظلمات، يدفنها في جوف قلبه، ويموت.

نحن علماء استقصاء الندوب، والجراح، والآلام، نفتّش عن صورة أوجاعنا بهيئة أثر، نمزّق صدورنا لننتشل قلوبنا المتشظّية ببارود الماضي، مرضى الذاكرة بمازوخية متطرفة، متألمون إلى حدّ النشوة، ننبش تراب حضارتنا، ونمسح الغبار عن الرُّقم الوجدانية، ونسترجع قراءاتنا بلغة الحبّ، إرثنا المطعون في خاصرته بصور من فارقونا... ورحلوا...

كيف ينسى؟؟!! وهي مصلوبةٌ فوق تلال شبابه، معلَّقةٌ كغيمةٍ في سماء روحه، تعبره لتستوطن فيه، احتلالاً محبباً برفضٍ مُطلَق لإجلائه والمطالبة برحيله.

يُجَمِّلُ الأوقيانوس عينيها، يذوِّبُ الكحل الغافي في ظلهما، ليتبعثر بفوضى مدروسة، كأن يد الله تعبث بعناية في لوحة رسَّام ألقى بألوانه بفنيَّةٍ متقنة، منتظراً لمسة عبثية تضفي جمالاً صيفياً على لذّة حسنها.

تعانقها ريح البعيد، تمشّط شعرها بقوة دفعٍ رهفة، ليظهر عنقها الرطب خشباً لحمياً نديّاً ينزف سُكَّراً صمغياً يوحي بالقُبَل.

فتاة الميناء، منتظرةٌ يداً ما تلوح لها من سطح باخرةٍ مُبحِرة، ترفعها نحوها كمرساةٍ تناشد الرحيل، وتأبى الاستقرار في قاع الحياة المعلّبة.

بخطاها المتمايلة، وترفٍ أنثوي بحريّ، تعبق بالحياة، والجمال، بصمتٍ فصيح كصوت الماء المتكلم بلغة الطبيعة، ثابت الملامح، عذب الهيئة، بانسياب لذيذ، ونقاء مشتهى.

تلك الشاهقة رفعةً، تنظر نحو اللامرئي، تدير ظهرها له، لتراقب محيط آمالها الزرقاء، تُقَلِّبُ الرمال في يديها ساعةً رملية

تتأمّلها بشغف، تلك الحالمة بمركبٍ يقلُّها نحو البعيد، تنتظره بتوقيت رمل الحكاية الهاطل، تُسَرّعُهُ بقبضتيها لينساب عاجلاً، قمح العمر المدروس بالانتظار، المتراكم كحصاد الصيف، المبعثر كقُوت العصافير الحزينة.

طفلةٌ تلهو بالقدر، تلاعب أيامه، وساعاته، وثوانيه، تستدعيه على أمل الحضور مبكراً، ليحسم ما تبقى من مصير أهوائها، ليحمل عنها أثقال عذابها، وترحل بلا حقائب.

ما زال يطالع صورها إلى اليوم، حصيلة ما استطاع التقاطه بعدسة قلبه، وبصمات أنامله المُجَمِّدة لزمن ضحكتها، ومزاج شرودها العفوي.

يتغلغل بها، كلّ على حدة، يعيشها بتفاصيل عتيقة، بمشهدية درامية معاصرة بإحساس الماضي، وحنين الحاضر.

تعوَّد أن يكوي ذاته، ويجلد نفسه، بجرعات زائدة، وحَقْنٍ مستمر لأعضائه الروحية بعقاقير أعدَتْها هي، عن غير قصد، ليشفى منها، لكنّهُ مريضٌ مستعصٍ على احتمالات النسيان، ما دامت صورة وجهها تبرقُ إذا أغمض عينيه، وغاب.

سَقَمهُ المعهود، أصبح إدماناً يتمنّاه في كل حين، أيعقل أن يكون الداء هو ذاته دواءً من روح وذكرى وربما اتصال هاتفي انتظَرَهُ منذ وقت طويل.

كيف لهذا الهاتف أن يرنّ بعد كل هذا الزمن؟؟!!

بعد الصمت المطبق، والنغمة الخاصة بها وحدها، وبريق اسمها السحري المنمَّق، متجاهلاً كل الأرقام، والأصفار المكوّنة لرقم هاتفها المحفور في خلايا عظامه، ضد الفقدان.

سابقاً كان الهاتف يحملُ لغزاً شيّقاً، وتوقعات مزدحمة في احتمالية كشف هوية المتصل، رنين جرسه هو المبشر بالفرح، والأمل، وربما بالحزن، علَّهُ يحمل عبر أسلاكه ذبذبات أحدٍ ما ننتظره.

لقد فقدنا عنصر الإثارة في كل شيء، الحبّ لا يحتاج إلى الكهرباء، ولا جميع التقنيات الحديثة التي تفسد متعة تذوّق شهد التجربة، ورحيق المواعيد، والانتظار، لأن العواطف الآن تجري عبر أثيرٍ محموم بالتلوث السمعي، والبصري، فالكلمة الإلكترونية جافة، والهمس الحسّيّ مشوَّش، حتى القبلة مفلترة لا تحمل شوق الأحبّة.

ما أصعب أن تترقّب صوتاً يأتيك عبر سماعة هاتفٍ أرضي...!!!

تراهُ متربصاً بك في تلك الغرفة الهَرِمة، ينازلك بصمته، وهدوئه المفرطين، تستجدي بوحَهُ لثوانٍ معدودة، أن يمتدّ حبل صوتها نحوك، تتشبث به، طوق نجاتك من الغرق في لجة غربتك، وظلام عمرك.

لكن لعنة الصمت تأبى الانعتاق عنك، ترافقك حتى في كل ما حولك، تتكلم أنتَ ولا تسمع صوت ذاتك، لتدخل في هيستيريا اللاوعي، ويزداد لهب الغياب، فيكتسح أرض حضورك، ويحرق أثاث انتظارك اللامجدي.

تُدخِلُكَ – هي – في لعبة كسر عظام الرغبة، والإرادة، لتحيط نفسك بجدار ممانع من الكبرياء، كي لا يُنتَقَص من خزَّان رجولتك شيء، لتبقى محافظاً على شرقيةٍ مهترئة تقيك حرَّ

النساء، عواصفهن، ومزاج أنوائهن، تحطم يدك إذا ما اقتربت من الهاتف المسمَّر جانبك، وكأنك تسرق خبز الحنين بلهفةٍ مستعجلة!!

أنت بحاجةٍ إلى كهرباء صوتها، لتشحن ذكوريتك بطاقةٍ أنثوية ممتلئة بالأمل، والفرح، بالحيوية، والمتعة، بمشروع موعدٍ تقترفه بعد كل ما حصل.

عند محادثة أنثى عبر أي وسيلة اتصال – دون أن تراها – يجتاحك الخيال وقتها، يخترق تفكيرك سلسلة من الصور والمشاهد المتوقّعة في سلوكها، وحديثها، تختار تعابير وجهها، وملامح نبرتها، تفصّلها على مقاس رغبتك في الجمال، تكوّنُ تصوّراً مرتجلاً عن أدائها السمعيّ، والحركيّ، تهبك مساحةً شاسعة من التكهن، والترقّب، والإصغاء المترافق مع نسج المعاني، والمغزى من حوارٍ عبر أسلاك أو أثيرٍ كأنكما تلتقيان عند حافة الدنيا، تجلسان بجانب بعضكما، وتبدأان الحياة.

يتمنّى اقتراب جسد الصوت، بخطواته المستعجلة، ولهفته المفرِحة، ذلك الهطول اللغوي لكلامها بهيئة عطر، يبلّل روحك بنشوةٍ صيفية تعيد ترتيب ذرّات مكوناتك بانسيابية مفرطة، وهندسة عاطفية تتيح لك الإحساس بأعماق المدى في محادثتها، وتمنحك خاصية التماهي عبر الأسلاك تجاهها، تلقنك درساً في تجسيد الذات على شكل بوح، والقدرة على جعل موجات قلبك المستمرّة امتداداً لإشارات همسها الدافئ.

بضع كلماتٍ كفيلة بإنقاذك من وحشة قلبك، تمدّ لك يد العون للخروج من بوتقة الوحدة، والانعزال، تقودك إلى موعدٍ

جديد، في مقهىً جديد، وطاولةٍ منسية لعاشقين تركا ظلّيهما، ومضيا نحو الحبّ... في أحضان دمشق.

يشتهي الآن صباح كلماتها الهاتفية، كما عهده طازجاً، أنيقاً، مفعماً باستهلال البدايات، مغلَّفاً بكسلٍ أنثوي مبكّر، ورعشةٍ مذبذبة يملؤها الترف المصطنع في الشروع بيومٍ تُكلله، تلك المضطجعة على أسرَّة الانتظار، بسيجارةٍ تلهو بين أصابعها برائحة الأمس، وقهوةٍ تغرق في لحم شفتيها، وتذوب ارتشافاً كأيامه.

تمرّ الأيام، والساعات أمام خيبته، ببطء مقيت، وهدوءٍ مؤثث، ربما لأن تَوَقُّع ما هو آتٍ على جناح الأمل، والاحتمال يكون مؤلماً، متوجّساً فَرَحك المقبِل، ساكناً في ظلك الدائم، مصغياً لهدير قطار قدومها المفترض، ماراً بمحاذاة محطتك، ملوّحاً، عَجِلاً، غير مكترث لمصير حسرتك.

لقد آمن بها في كل وقت، وراهن على مزاجية قلبها المغمور بالغموض، المُسيَّج بنورٍ ساطعٍ يحجب الرؤية، ويحول بينه، وبين لبّ حقيقتها الغَنَّاء.

جَعَلَ منها نقطة ارتكاز في متاهة حياته، نقطة ضعفه، ومركز مجرَّته، شمسه البكر، ضوءاً يلملم فراشاته كحروفٍ مغرّدة في فضاء خياله.

تلك المُعلَّقة في منتصف عقدها الثاني، في أوج فتوتها، وفتنتها، احتواها بقدر حبّه لها، وضَربَ طوقاً من الورود حدودها، كي لا يمسها العابرون خدشاً، يرعاها كطفلةٍ تلهو في ملاعب قصره، يدلّلها برفاهٍ ملكيٍّ سامٍ، لكنّها آثرت الهروب عبر مداخل

الليل، ومخارجه نحو الفراغ، والحرية مُجتازةً أسوار قلبه، محطِّمَةً هيبة وجوده، متمردة على قرار سطوته، ثائرةً، منتفضةً، راحلةً صوب السراب، منتعلة روحه، هو أسيرها مدى الحياة، محكومٌ بالعزلة في مملكته الفارغة إلّا من طيفها.

أضاعها في ازدحام الخطوات، والعبارات، يفتِّشُ عنها في جيوب الزمن، والطرقات، لا يعرف إن كانت مهزومة الأمل، واللغة، أم حَظِيَتْ بالانتصار الأبدي على عقلها، وتركَتْ لقلبها مهمة قيادة الأهواء، والرغبة، مَرْكَب رحيلها الغامض بلا وجهةٍ معينة، نحو الحلم، والضياع، تجاه سراب الحقيقة، لقد أغلَقَتْ باب العودة، وأودَعَتْ مكانها فراغاً، معمِّراً، ثقيلاً لا يقوى على تحمله.

ما أصعب الرحيل بعد المكوث طويلاً في ردهة الحبّ، تاركاً بقايا حاجاتك المادية خلفك، بنصف روح تحملها لأنك لا تقوى على انتعال ذاكرتك المحنَّطة في متاحف المدينة.

هنالك مقهى ما ينتظرهما، أعدَّ لهما زاويةً للحياة، واللقاء، يختزلان فيه أجمل، وأرقى تواصل إنساني عاطفي، بلا تجميلٍ، وزخرفة مجتمعيَّة مصطنعة.

هما امتدادٌ لماضٍ توقف يوماً ليلتقيا، عَصَفَتْ به لحظة الصدفة، نوراً آنياً، كَبُرَت السماء برهةً، وأدرَكَ حينها بأن السنين ستمضي حاملاً صورة وجهها، ليكتب قصّته معها خلال عقدين من التاريخ، ويبدأ العد التنازلي لحكايتهما، وكأنه يجهِّز كفن الموت قبل البداية.

هم العشّاق يمتلكون حاسةً ذاتية، بمستشعرات زمنية يدركون بواسطتها معرفة العمر الافتراضي لواقعةٍ ألمَّت بهم، زلزالٌ روحي

سيُحدِث عاصفةً قدرية ستطيح بكل ما حدث، في الوقت الذي تعجز فيه أحدث التقنيات، والأجهزة الحديثة عن رصد تحولات عميقة تودي بنا إلى كوارث مادية.

تلك النفس البشرية استطاعت حلّ ألغاز، ومعضلات جمَّة، لكنّها ما زالت تحت عدسة الرقباء، والمهتمين، لتشريح تكوينها، وفكّ شيفرة الشعور، والتفكير، بكل تأكيد، الحبّ هو المحرك الأساسي لعجلة الكون.

يعلم في قرارة نفسه بأنها لن تكون له يوماً، ولن يستطيع الإحاطة بتفاصيلها مهما امتلك من حُبٍّ، وحكمة، ورجاء.

طيرٌ مغرّد خارج أسراب الحالمين بالحياة، يعلو ترفّعاً، وفضولاً، يشقُّ سماء المدى، ويقطع خيوط الهواء بقسوة القرار يحاول ضبط إيقاع قلبه، نَهرَ روحه الجارف لحصى تعثُّرِه بها، متهيئاً للقائها عند ضفاف المواعيد، مُرَتّباً أوراق اعتماده المبتكرة شوقاً، متلهفاً لرؤية عينيها المدجّجتين بفرحٍ مرتجَل.

لديه متعةٌ في الإعداد المسبق لملاقاتها، ذلك التحضير النفسي، والمادي للجلوس قبالة أنثى بجمالٍ، وترفٍ، بتواضعٍ ذكوري أمام سحر حضورها، ورفعةٍ معنوية للزهو بها في محفلٍ عتيق، مكانٍ منسي في جيوب المدينة.

كأنه يرتب جلسةً صوفية مع إله حوائي مقيمٍ في هيكل وجدانه، يتضرّع له بكبرياء رجولي، واحترامٍ دنيوي أصيل، يجتمعان معاً ليكملا حكاية المساء، والخشوع لإرادة الحبّ، يبحران في عالمٍ مختلف، يرتبطان بأسلاك خفية، تعزّز الجذب، والمغنطة بينهما، هما عناصر الأرض، وثروتها الحقيقة.

عموماً، يطلق على تلك الأماكن صفةً عامة، مشاعٌ للجميع بانتقائية مزاجية تعود لرغبة الملتقين وأهوائهم، ولكن سرعان ما تتحوّل العمومية إلى خصوصية مفرطة لدرجة أن يصبح المكان بملامحه، وأثاثه، مَعلَماً تذكارياً خاصاً، يحتل شاغراً مركزياً في مساحات وجدانك، كونه مرتبطاً بأرقى، وأجمل لحظات مرَّت بك في مشوار الزمن، والإنسانية، ويسقط عنه نعت عموميته إلّا في الذاكرة الجمعية للروَّاد ذاتهم.

نصنعهُ، حيّزاً من الفراغ نكسوه بخشب الأشياء، ومعادنها، مؤثَّثاً بحضارةٍ مُنمَّقة تناسب شكل أحلامنا، وأيامنا صامتاً بجلالٍ بديع، مُهَندَساً بحجم الشغف المتوقّع، لنأتي، ونسكب أرواحنا فيه، وتجري الدماء في عروق زينته ليضحي مسيطراً بسطوته على هواجسنا، يمتلكنا كأسرى لا نقوى على مقاومته، متغلغلاً في شقوق إدماننا، كونه يهبنا الحياة بعد أن صقلنا جماده بأنفاس جمالنا رُوحاً.

نفترشه "منزلاً عاطفياً" نحيا فيه بأرستقراطية طفولية، وبساطة الفقراء، لننازل الألم الساكن فينا، وتلك الغربة المؤلمة المعششة في ضلوعنا.

ثمة طاولةٌ للإفصاح، اقتُلِعَتْ منها الروح، وُضِعَتْ هنا، لتجمع الأرواح المشتّتة تضحيةً.

"لو كان الخشب مدركاً لماضيه، لشرع في البكاء حتى يذوب"... يئن قليلاً عندما يتحرك، ألماً صارخاً، مناجياً روح الطبيعة، والزمن، مستجدياً العودة إلى الأصل، نحو جذوره الممتدة في أديم الأرض، وفروعه ممدودة الأيدي تجاه الشمس،

محمَّلة بأمل أوراقه بالزهر، والثمر.

أيحملُ هو في طياته حنين الخشب؟!!

هي تربة أرضه الخصبة، ماء نضوجه، ونضارته، جذوره الضاربة في صميمها، يُثمِر حروفاً بعبثية النمو، ورتابته، متدليةً من أغصان قلبه الصلب، لحم فاكهته الأنثوية، هي المغطاة بلحاء حبّه الليّن، يخشى اهتزاز جذعها كي لا تسقط كلماته في أتون الشهوة.

يتخيلها تجلس في ظلّه، يقيها من حرارة العمر، ويهبها لظى حرقته، يمسح بأنامله حبّات العرق المتصبّب على جبهتها، تبدو شهيةً عند شرفة التعب، يصطنع لها هواء فمه يزيح عنها عجلة خطواتها، ووسادة ذراعيه تمنحها قيلولة، يتأمّلها كطفلةٍ عادت، ونامت بعد اللعب.

يمسح شعرها، ينظر إليها دون أن يكلّمها، الضوء مسكوبٌ فوق وجهها، يغدقُ عليها لون وهجه، فراشةٌ تعبثُ بالقرب من ملاعبه، وساحاته، تتراقص بلا تعبٍ عند عتبات النيران المشتعلة، تغازل النور، وترصد النار دون أن تحترق في لهبها المستعر، تحومُ حول أنقاضه الهامدة، تشهد على حجم الدمار المكلّل بالخيبة الأبدية.

تتّسعُ الأرض كرماً لعيونهم، تحمل عنه ثقل حبّه المتعَبْ، ليُودِع قلبه في جوفها لفرط تورمه حبّاً، وصعقه بلحظ عينيها، لربما يبتعد عن ضوئها، ليستعيد نضارته ولون دمه القاني المصبوغ بحمرة شفتيها.

***

يقترفُ موعداً آخر، في مقهى، محاذٍ لسنواتٍ خَلَتْ، مكاناً يعترف صراحةً بمطاوعته للفصول، ومجاراته لمواسم العاشقين المتلهفين للحياة.

تستقرُّ فيه "راحة الأرواح" مقاماً معنوياً موسيقياً، تستمع فيه إلى صوت الكون، وصداه، من هنا مرَّ الإله ليبارك الجالسين، ويمسح بمنديله غبار التعب، والحزن عن جدرانه العتيقة، ويومض بالرهبة المقدسة في قلوب الحالمين بلحظاتٍ منفصلة عن الحقيقة.

بعض الأماكن تسكنها موسيقا الزمن، والطبيعة، تفوح من زواياها كعطرٍ هاربٍ من ورد الشرفات، أثاثها يصدح بنغماتٍ خفيَّة تخترق شغاف القلوب الظمأى للحنين، أناسٌ كوى الحبّ شراييهم، وأفقدهم الطمأنينة، والثقة بالحياة إلّا بقرب مرآة نقصانهم.

مرتكباً لحماقة حبّها في كنف المدينة، متهماً بطول الانتظار في زواريب قلبها، منتشياً بمطر لقائهما المبهر، منتعلاً صبر النهايات، ولذّة البداية.

لم يخلِفْ وعداً صرَّح به مرةً، أقسَمَ في قرارةِ نفسه أن يصون لون الفرح في عينيها، ويحتفظ بصوت أنفاسها في صندوق قلبه المذبوح، ولكن كيف سيقيها من مطر كلماته، وحبّه، وأيُّ مظلةٍ ستحميها من البلل العاطفي وقطرات الندى المستقرة فوق أسقف الصباح المشرَعة للسماء!!

استطاع أن يرى رائحة الشتاء في جمالها، ويلاحظ تقلّب الفصول في مزاجها العفوي، وهي العاشقة لحرية الضوء، وحيويته، صديقة الشمس، والإشراق الدائم، العابثة في ملاعب

الذكورة، والمنتشية بانكسار غصنها أمام ريح أنوثتها.

دائماً، وفي كل الأوقات، يضخّم الشتاء أحاسيسنا، ويحقننا بماء الحياة في خلايا الوجدان، ذلك الطقس المحموم ببرودة رمادية تدفعنا للهرب نحو الدفء بلهوٍ إنسانيّ طفوليّ، ودلالٍ عاطفيّ مبتلٍ بفرح البشارات كزهر الماء المُنتَظَر فوق الشبابيك، ونضج الغيوم الملتقية بلا حدود.

ترافقنا أوركسترا المطر بإيقاعات طبيعية توجز بهجة الأشياء في الهطول، عرفاناً لصدق السحب في قدومها، قرباناً تهب ذاتها للأرض، حبّاً وكَرماً، كي تكتمل الصورة، والمشهد، ويسبح الضوء في أثير السديم، وبقع الماء خلال الحجر المتراص دفئاً، يغلّفنا البرد بلذّةٍ مرتعشةٍ، برضىً، وقبول شقيين، لأن الروح تهتف لانقلاب الأجواء، وتطالب بزمهرير عاصفٍ بالاشتياق.

ينتظرُ هطولها، صوتَ خُطاها الطارق في سكون الحيّ القديم، وصُمود القناطر المرتكِزة على التاريخ، يجدِّدُ معها فرصةً للقاء في كنف الحضارة القديمة، والأوابد الهندسية الشاهدة على حياة الأسلاف الرازحة تحت غبار القدماء، وآثار ملامحهم المعاصرة لمرورهما معاً في زمن الغرباء، والحداثة.

يتملَّكُها عشقٌ لأجواء دمشقية في أماكن منسيّة تحت سماءها، تتعمد دائماً أن تترك أثر السُّكَّر فوق الجدران، والأعمدة المشيَّدة منذ قرونٍ غابرة، تبيعُ إعجابها بما حولها بالمجان، تنظر بعين سائحةٍ، وكأنها تلتقط صوراً تذكارية بأعينٍ ستشتاقُ لكل شيء، تودِّع بلهفةٍ مناظر عَهِدَتْها باستمرار، ربما سيأتي يومٌ تتمنّى فيه لقطةً دراماتيكية تسرقها من بعيد لأشياء كانت بقربها،

وبين يديها، ستُحرَمُ منها قهراً، وعنوةً، ترصدُ بعين الاحتكار اليائس نسمات الهواء، وحفيف الأشجار، صمت الجمال المحيط بها، وجوه الناس، إلّا هو..

للنوافذ هنا، إطلالةٌ على الحياة الصباحية المفعمة بالقهوة المسكونة في روح الخشب، تشعر، وأنت تنظر نحوها، بأن أحداً ما سيطلُّ منها، أو من شرفةٍ صغيرة بجانبها، كأنها مسارحُ مزوَّدة بستائر تخفي وراءها كواليس الإرث الدمشقي لأشخاصٍ هجروا مقاعدهم، منازل قلوبهم، ورحلوا تاركين وراءهم حزن الأثاث، ووحشة الفراغ، ذلك السكون المعذِّب لرغبةٍ في النطق، والتعبير عن الألم الجميل لممثلين فقدوا القدرة على ترجمة المشاعر بالإيماء، والحركة بالكلام.

بعضُ الأحاسيس عصيّة على الشرح، لفرط قوَّتها، فتكون عاجزاً عن إيجاز ما تملكهُ من شعورٍ ببضع كلمات، فكيف نعبّر عما بداخلنا إذا كانت اللغة كسيحة غير قادرة على السير نحو أنفسنا، لتعبر جسراً يوصلنا إلى الآخر...؟؟!!

لا سبيل سوى الدموع، هنا تكمن المفارقة بأنها وسيلة غير مقصودة للبوح بالفرح، والحزن، تضادٌ هزليّ واقعيّ، بنتيجةٍ واحدة لسببين مختلفين، إلّا أن دمع الفرح يحمل في جوارحه علاماتٍ موسيقية مقطَّرة بصفاء النغم، تعصفُ بصاحبها، لتُكسِبَهُ مدىً متّسعاً، وأملاً قد تحقق.

للحُزنِ دموعٌ لا ترحم، تحرِقُ وجنة ذارفها، تُغلق أبواب الكون، والسماء، تُطفِئ الشمس، ويموت القمر منتحراً، تتصاعد حمم الروح لتدفق سُمّها في رحاب المسافات، ترتحل الطعنات

في جسد الأمل، تسقط في بئر الحسرة، يتغمدك الضياع، وتفقد حواسك المرتبكة، تتأمّل خراب كيانك، أنقاض ركامك، تعب اللوعة في أحشائك.

كم هي الأشياء التي نعلم أنها سترحل، وتموت، سيكلّلها الغياب يوماً، إنّها لفكرةٌ مرعبة، خاصةً إذا كانت تتعلّق بمن نحب.

تعيش معه أجمل لحظات العمر، ترافقه مراقباً لغة عيونه، تتهُّد إحساسه، ضجره وفرحه، تعبه وضحكته، جنون قلبه المُحَبَّب بتُرَّهات ملحية تضفي لذّةً، وبصمةً شخصية مسجَّلة في شيفرة ذاكرتك السرّيّة.

ما أقساها من حياة...!!!!

يغيبهم الرحيل عنك، ليس هو إلّا وجهٌ من وجوه الموت المستَحَق، أن تبتعد عن أحدٍ ما، يعني أنه أضحى في عِداد الأشخاص المنسيّين المُخفِقين في الحفاظ على صورته المعلَّقة على حائط منزلك الداخلي، كذلك هو، ربما احترف النسيان بمهارة، كُلياً بلا تردد، بشكل يشبه الحذف الإلكتروني بضغطة زرٍّ ينتهي كل شيء، لتُقطَع خيوط التواصل، والاتصال، وتحترق الحبال المعنوية الرابطة بينكما.

أنتما تحت سقف سماءٍ واحدة، تُشرِقُ الشمس عليكما معاً، ويسطع عاج القمر فوق ظليكما في الوقت ذاته، فوق مساحاتٍ مختَرَعة على كوكبنا السابح طفواً، يفرقكما الكبرياء، رقمٌ هاتفيّ يحول بين قلبيكما، ودمعةٌ تسقط شوقاً ومطراً...

هي من تتقن التغزّل في محيطها، بتكبّرٍ متمرّد، وعدم

انصياع لشهوة الإقبال على المستهجَن، والجميل، تُبطِّنُ أحاسيسها بغار الرفعة، والدلال، تخبئ مشاعرها خلف أوراق التوت الساترة لعورة رغبتها... بالحياة.

لم يخبو نجم حبّه لها، حتى في أقصى مراحل خلافه معها، تستعمر مُدُنَهُ، وتضرب بسيف سطوتها زهور حدائقه، لتنثر عبيراً في سهول وجوده، وأنهار كلماته.

وحدها دمشق تشهد على مرورهما معاً في شوارع محمومةٍ بالفصول، أزقةٌ توضّأت بمطر الحنين، مقاهٍ مُشرَعَة الأبواب، والأسقف صلاةٌ لرب الحب، تعبرها أنتَ فوق غمائم رمادية تقودك بارتفاعٍ شاهقٍ نحو مصير روحك، وشهقة اللقاء المشتهى.

هنا ينحني الوقت عند عتبات الأبواب، ليعبُر نحو فضاءات ملونة بعراقة الجمال، وحداثة مكانية متأصّلة بنكهة الماضي، تتمنّى لو تبقى مقيماً مدى الحياة في ربوعها، منتظراً الحبّ، والموت على كرسي خشبي في بهو فسيح بالقرب من بحرةٍ شامية، تجترُّ ماء لهوها برقّةٍ، وعذوبةٍ نقية تبعث الطمأنينة، والدفء العاطفي، تروي أرواحنا الظمأى للمحبّة، والأمل برذاذ عبيرها.

دمشق... منبع الحياة والموت، مستقرّ الفرح، والحزن، موطن الفوضى، والعبث، جنة الأحلام، والأوهام، مصير الحبّ المفخخ بالألم، وجع ذكراها المبطَّن بنشوة اليأس.

بتوقيتٍ ماطرٍ، الساعة السابعة إلّا لقاء، لم يعتد أن يحمل مظلةً تمنعه عن الاستمتاع بالبلل الروحي حين تُفصِح الغيوم وتعشقُ السماء أرض مستقرّها بوحاً، ينتشي في طقسٍ إلهي

راجياً ألا تتوقف مسرحية الطبيعة، مبتهجاً بذلك الكمّ الهائل من المشاعر المرتوية بنبيذ الكروم السماوية المعطاءة، تدفُّق عصارة حدائق الله بروح الأم، وبهجة الهطول.

بمعطفه الطويل، وشالٍ أسود اللون، مشنوقٍ حول عنقه، يعبر أزقةً مبتلَّة بالعطر، ورائحة النساء، والحبّ، مزدهرةً بالمواعيد، وضحكات العذارى المنذورات للعشق، بقامته الرجولية المرتفعة، وخُطاً مزاجية تدوس برفقٍ مدروس وجه الطريق المتصدِّع بقسماتٍ بازلتية مُهندَسَة مغسولة بضوءٍ خافت قادمٍ من انعكاس المصابيح الموزَّعة على جوانب البيوت، والمحلات الساطعة بإبهارٍ متواضع.

هو لا يشقّ طريقه نحو المقهى، لأن قدميه لا تتوهان عن بوصلة وجهته، تقودانه نحو قدره المكتوب وقراره القاطع في إتمام ما بدأ به من "جنون".

سيلقاها هناك هذه المرة كموعِدِه الأول معها، لن ترافقه في مشوار ذهابه نحوها، رفيقة دربٍ يسلكه وحيداً إليها، لن يعبرا معاً إلى الضفة الأخرى للسؤال، سيكون في انتظارها بهدوءٍ قاتل، وصمت مطبقٍ، ربما سيمنح نفسه وقتاً حتى يكون في صحبة ذاته عبر الطريق المفضي إليها، باستعدادٍ لمواجهتها مجدّداً، يحتفي بِطلَّتِها، قادمةً إليه كطيرٍ مسائيّ يفتقد جرعةً مدلّلة من العطف، والاحتفال.

على الرغم من اشتياقه الدائم لوجودها بجانبه، ورغبته المستمرة في ملازمتها كل حين، إلّا أنه يستقرئ حالةً عشقية في السعي تجاهها عبر شوارع يعبرها وحيداً، كي يؤخّر لذّة رؤيتها،

ليشكّلها حسب خياله، ويوضّب أنوثتها تبعاً لأحاسيسه، ومجال تفكيره بها، ويهب لنفسه فرصةً لتأجيل سعادته خشية أن تنتهي عند مرور الوقت في حضرتها.

ولكن في قلبه، تتسابقُ خيول دمه لرؤيتها، ليستجدي الزمن، والحكاية بالتوقف، مُلقِياً التحية حيث هما، محتلاً مكاناً في زاوية معتِمة مراقباً تفاصيل شرودهما، مؤرخاً لحاضرٍ سيُمسي ماضياً متكئاً على خشب الذكريات المشتعلة، عابراً تضاريس مدينةٍ ترزح تحت مقصلة الحبّ، تجبرك بسطوتها على احترافه تلقائياً، وامتهان العشق المبكر رغبةً، تفتح أمامك أبواب المضي في علاقة إنسانية رفيعة المستوى، ضمن أجواء تعزّز الإقدام على مشروع عاطفي تلقي من خلاله أثقال هواجسك، وفيض اختلاجك النفسيّ، شِباكاً على نظير أحلامك، وشريك لحظاتك، لتدخلا في حالةٍ وجدانية من مدٍّ وجزر، ويلاعبكما موج الحياة في بحر حريتكما، حتى ترسوا على شاطئ الحقيقة، جزيرةً بلا حدود، مفتوحة على أصقاع الدنيا، مدينتكما الفاضلة بلا سُكَّان، تلهوان فيها بعبثية المجانين، تتنزهان عند حوافها، تزرعان الأمل والموسيقا، تعدَّان أرواحكما للّقاء المستمرّ، لتختزلا معاني الوجود البشري، وتجتمع فيكما طاقة الكون، والسماء.

يلقاها قبل أن يدركها، يراها دون أن يطالعها، يشعر بدنو أنفاسها، وهي تحترف المسافة على بُعد طرقاتٍ، وانتظار.

يحلم بها، بهيئتها الفاتنة، يخشى لحظة الانبهار بها، كي لا يبدأ المؤقت الزمني المعلن لبداية نهاية الموعد عند حافة الكون.

تجبرك الأنثى دائماً على استنهاض "عيونك النفسيّة" لتتمكن من مراقبة سلوكها الحياتي، تبعاً للموقف، والمشهد البصري المكاني، فتتعلم منها بإعجاب أدبياتٍ حسّيّة، وتصرفات حركية تنمُّ عن سلاسة تعبيرية في بروتوكول أنيق يوحي بالحرص على الظهور في أبهى صورةٍ، وأرقى معنى.

يواصل الدرب نحوها، كأنها قديسة ينحو إليها بشوق القاصدين، وفرح المؤمنين، قاطعاً أزقةً مُعبَّدة بصخور قلبه يدوسها ليشتدَّ ألمه، وسعادته كلما تضاءلت الأبعاد، وبهتت الأضواء، صاعداً تجاهها، عالية المقام، تتربع في قمة جبلٍ، ناسكة وجدانه، زاهدةً إلّا من الحياة، تهب خبز ضحكتها للعابرين، وتسقيهم ماء عذوبتها، هم العطشى لتذوُّق رحيق صلاتها، منذورون لحبّها بأضحيةٍ سماوية لا تكفيها، وهو من وهب أيامه، عيون ليله، لينقش كلاماً من قمح سهولها، وفاكهة جسدها، متمنّياً ألّا يجف حبره فوق أوراق جلدها، مؤرخاً عباراته، مفضياً هواجسه على مسامع صمتها، مُقرّاً باعترافاته، وحماقاته الكُبرى، قبل غياب شمس الصّحو، مستسلماً لنارٍ هندوسية تشعل إيمانه في عينيها.

تتسرّب حبّات المطر في شقوق تصدعه الباهتة، ترمم هيكل مشاعره المترامية على قارعة الطريق، يزداد حزناً قبل أن يراها، ربما هو الشتاء من يُكفِّن قلوبنا الملقاة في صيف الحبّ، يصقل مشاعرنا بأنصال برودته، ويغلفنا بحميمية طقسه الشهيّ كامرأةٍ جميلة تسير وحدها في زقاق عتيق.

يتساقطُ الأمل مع مياه القنوات المصرّفة للهطول، تتبعثر خطواته خشية التورط في البلل الشعوري المستفيض، ضبابٌ

يحوم عند عدساته الطبية يُفقِدُهُ المقدرة على الاستمرار، ينزعها ليكشف للسماء عن التعب الساكن في عينيه ليناظرها بنشوةٍ لحظية ويبتسم، ليرى الأشياء بنصف وضوح، وبصيرةٍ متقدة.

ينحني قليلاً في مشيته، عود جسده، وطوله النسبي يُكسِبُهُ ميلاً لاإرادياً، على الرغم أنه تعوَّد ألا ينكسر أمام متاعب الروح، وشقاء الحياة.

أتكسرهُ هي؟!!

تلك المُجَازِفة بنصف قلب، تضعهُ تحت طاولة المواعيد، وتخبّئ النصف الآخر في جوفها، أتُهديه صاعقةً تُفرِغُ فيها شحنات كتمانها في صميم روحه، تلمع عيناها كبرق السُّحب في باله، وصوت الرعد – غضب السماء – ينبئ بالقادم.

يجتازُ مقاهيَ، وموسيقا تصدح من أفواه أبوابها، رائحة التبغ، والعطر تتداخل في أثاث تكوينها لتعطي عبقاً بنكهة الجاز الكسول، يفوح بأناقةٍ تراثية تتغلغل في مزاج الروَّاد، والعابرين.

يشعرُ بزهوٍ شتائي، ودفءٍ مضطرب، ورغبةٍ في ملامسة الطين الملتصق بجدران الزقاق الطويل المفضي إلى الملتقى، يشتمُّ عبيره الضائع في مسامات البيوت المتكئة على بعضها، خشية مرور الزمن الكفيل بإطاحتها.

هو مدينٌ لتلك الممرات، والقناطر، والمقاهي في إغنائه بروحٍ شرقية حضارية أكسَبَتْهُ إحساساً أكثر بالأشياء، ومَنَحَتْهُ طاقة هائلة في التعبير عن عشقه بالكلمات وجَعَلَتْ منه عاشقاً مجنوناً يمتلك سحراً في تطويع قلبه، لينبض بالحياة، ويُطرَب بالموسيقا كلما تلاحَقَت الثواني، ومرَّ الزمن في وجدان عمره.

ينظرُ إلى ساعة يدهِ، ربما ليحسب ما فاته من وقتٍ على الحبّ، أو ما تبقى من زمنٍ على إتمام حكايتهما، والوصول إلى ميناء اللقاء، أو الوداع.

تلك المقاهي المحفوفة بالجمال، والحنين إلى وقتٍ لم نحيَه، عصرٍ نتمنّى لو شهدناه، وطعن قلوبنا بأصالته، وغناه.

تعوّد ارتيادها بشكلٍ مستمر، ولم يُفكّر في سبب ديمومته، وتعوُّدهِ على المكوث فيها كلما ضاقت الأماكن به، وتجرَّحَتْ ذاته بأشواك الواقع، إلّا أنّه اعتقد بأن ارتياده لها ما هو إلّا تعويضٌ لنقصٍ حادّ في كريات دمه الاجتماعية، والزمنية، لعله ينتمي إلى سنواتٍ ولّت مع غبار الماضي.

حبذا لو نُقِشَتْ تلك الزخارف وشماً فوق جلده، أو أن البَحرة المتربعة في مركز البيت الدمشقيّ هي أوقيانوسه الفكري الحضاري، منبعُ لذته، بنافورته الكسولة الخجولة، ورذاذٍ فجريّ مقاربٍ لندى الصباح المبكر، إعلانُ بدء الحياة يومياً بعد هطول الشمس العلني، ضوءٌ يغازل فرح الماء الأبدي الحركي، ورائحةُ الأثاث المُحَدَّث ما زالت تلاعب نسائم الليوان المتأرجحة، ومسرح البهو المرصّع بالأشجار، تتعشَّقُ في أنفه ملازمةً لعطر حبيبته أينما حلَّ، خاصةً في أروقة الحبّ، ومزارع الذكريات – موطن لقائهما المتجدّد في كل جريمة شغفٍ يقترفانها معاً.

يدمنُ حبّه لدمشق... ولها...

يتعاظم الإحساس بالحبّ إذا كان المكان الذي نعيشُ فيه قصّتنا، حميمياً، لائقاً برفعةٍ، وسمو أنفسنا، متعالياً فوق سطح القاع بتواضع البسطاء، وكبرياء الملوك.

مُطلِقاً لقدميه حرية الاختيار، والمضي في متاهاتٍ يعرفها جيداً، يتواطأ مع المسافات، وقلبه على معرفة بما يجول في ذهنه من عشقٍ، وتَعلُّقٍ بأمكنةٍ تسكن كأنها وطنه النائم في حقول الأيام.

يقترب المقهى... وهو الثابت المتسمِّر، تدور في فلكه ملامح المدينة القديمة، مجرَّته الكونية، ناسفاً كل ما يُصَنَّف من كواكب، ومساحات يحتلُّها الصمت، والكراهية، والبرودة الصمَّاء المصمتة.

الوطن حيث تَعشَق، حين يطرقُ الحبّ باب قلبك، لتهرَع مهرولاً بلهفةٍ لتدرك من يزورك، مستغنياً عن العين الكاشفة الساحرة المزروعة في لحم خشبه، والمُنصِتة لصورة القادم، والمراقِبة لسلوكه العفوي، آلة تصويرٍ لحظيَّة توثق شروع عاصفةٍ تتجه نحوك لتبتلعك بكل جاهزيتك، رغماً عن ممانعتك الحائلة بينكما.

لم يفصلهما أيٌّ من الأبواب، لأن الحياة كانت مُشرَعةً لروحيهما، لا حاجة للحواجز، والسواتر النفسية، فلقد هطَلَتْ أمام عينيه يومها، حين التقاها للمرّة الأولى، وشَعَرَ بكهرباءٍ لذيذة تسري في شبكة عروقه العصبية، ذلك العصف السماوي في قلبه الغضّ كأنه إحياءٌ مسبق، وإنعاش مبكّر لخلاياه البكر بصاعقةٍ علاجية ضرورية أبدية لتكون ندبةً تذكارية كلما نبض بقوّةٍ، وتسارَعَ الدم في جسده، عندما يأتي ذكرها، وتلوح صورتها في واقعةٍ ما.

يعبُر بخطواتٍ مُثقلة نحو الغرفة الشتائية للمقهى، والمجهَّزَة بعتادها المحرِّض على الدفء، والحياة.

يجلسُ في زاويةٍ بالقرب من المدفأة، وفي عينيهِ تلتمع

البرودة، والشوق لها، يداهُ زجاجتان من زُرقة السماء، ووهج اللهفة، يتكئ على مقعدٍ مُغطّى بنسيجٍ عتيق، ملوَّنٍ بنطاقات متتالية، أمامَهُ طاولةٌ خشبية كأنها قُدَّت للتّوّ من جذع شجرة كهلة، صورٌ، وتماثيل معلَّقة، وصامتة، ضوءٌ شاحبٌ مُتعَبٌ يوحي بالسكينة، والهدوء.

تنبعثُ من الزاوية الأخرى موسيقا لاتينية غير معروفة تُناسب روح المكان، وطبيعته، هو المولَّعُ بروحٍ شرقية تسكن في عمق الأماكن العامة، العاشقُ لفوضى مرتبة بأثاثٍ قادم من السلف التاريخيّ لحضارة المدينة، تمنَحُهُ روحاً مزدوجة بفائضٍ يحيا به أوقاتاً من الألفة الشعورية في أحضان المقهى، مسامِراً لشقوق الخشب الممتدة إلى جسده.

يشعرُ، وكأنه ينتمي إلى ذلك الديكور العتيق المتنوع في أشكاله، الطاعن في ذاكرته، والمتقِن لتفاصيله الدقيقة، ربما تراقبه الأشياء بصمتٍ مُطبِقٍ مستمرّ، ينهلُ منها ليروي ظمأ ترابه من ماء النقوش المحفورة في وجه روعتها.

هنا وطن الحبّ، وجوه الروَّاد مفعمةٌ بالحياة، والأمل، لأنهم حقيقيون، عُراة من عولمةٍ كاذبة، ورياءٍ اجتماعي يُمارَس علناً على قارعة الطريق، والشرفات، والمنازل.

لا شيء يجبرهم على النفاق، تفضَحُهم عيونهم بمحبّةٍ خالصة، وابتسامات راقية بسيطة، غير متكلفة، تختصر كثيراً من الأحاديث، والعبارات المنمقة، والبروتوكولات الاجتماعية، هي لمسةُ يد من تُحب، توجِزُ المعاني، وتطوي سنواتٍ من النوى، وتبعث الدفء رغماً عن قسوة الشتاء.

ما الانتظارُ سوى استعجالٍ ضمني لحدثٍ ما، يأتينا مع تلقائية الوقت بشروطٍ زمنية تناسب مزاج القدوم المرتاح دائماً، يضعُ حطباً من ساعات، ودقائق ليُشبِع نار الطهو الذاتي للقاءٍ محفوف بالحياة، والأمل.

كيف لا ينتظرها!!

وفي كل لحظةٍ احتمالٌ مفترض لهطولها عند طاولته، وهو من يهوى صوت ارتطام كعبها العالي بالخطوات، عطراً هارباً من نبض عنقها يسبقها إليه، يُنازل حواسه في القدرة على ضبط بوح لذته بعد حين، وكبح جماح حروفه في تتبع أثر العبير الضائع.

أيكون الانتظار أشهى من اللقاء؟!!

أنتَ أسيرُ محطَّتك، تستجدي عجلة العربة القادمة تحملها نحوك، لا قطار هنا، ولا طائرات، لا سبيل سوى عبور الأزقة سيراً على غمائم اللحظة، غيمة أنوثتها ستقودُها إليك، رائحةُ مرورك عالقةٌ على قناديل الزقاق، ثمّة آثار لوقع أقدامك فوق طين المسافة، تُخبِرُكِ عن ارتباك خطاك، وبعثرة أهوائك.

في لقائنا مع من نحبّ في مكانٍ عمومي شجيّ، أرشفةٌ اجتماعية لحدثٍ غير اعتيادي، وكأننا نُشْهِدُ العامة حولنا على قصةٍ ستبدأ.

نسرق اهتمامهم، تلفُّت عيونهم، تساؤلاتهم المحمومة بالفضول، نظرات الغيرة المبطّنة، لنعلن بدء توثيق الحياة بعدسة رصدهم، ونطمئن على خصوصية آمنة من قرصنة آذانهم.

– 6 –

"لأنكِ الأنثى الاستثناء... أحبّكِ...
ولأن العمر بين يديكِ.. حريقٌ عشقيّ المعنى... أعشقكِ...".

غارقاً في لذّة وحدته، منتشياً بلوعة المكوث يرتقبها، ستأتي بعد قليل، حين تشير ساعتئذ إلى توقيت نضوج، واحتراق مشاعره بنار مكرها الهادئة الحوائية، فهي تدرك معايير، ومقادير إعداد رجلٍ على طبقٍ من انتظار.

معها تصبح فريسة الوقت، صيداً ثميناً لأنظار النادلين، والعامّة، محطَّ تهكُّمٍ لهمسات اللوحات، والجدران، والدخان المعطَّر بأنفاس الحالمين قربك، باستمرارية حميمية لطاقةٍ عاطفية تحومُ مع ضباب سجائرهم، وحريق أرواحهم بلظى الحبّ، والاشتياق.

حين تعشق بكامل جوارحك، تكون مستعداً لتقديم التنازلات الفردية أمام من تحب، تستبقي نفسك لدهورٍ كرماً للقائه، تذوبُ شمعاً لتضيء دروبه المظلمة، تُعِدُّ له ولائم العشق من لحم وجدانك، وتقطف النور من عينيك لتزرعه في قلبه ضياءً كي لا يتوه في ازدحام الحياة.

الحبّ... هو الاستعداد لأن تحيا بفائضٍ روحيٍّ ثقيل بخفّة الفراشات، بجرعاتٍ وجدانية مُشِعَّة تداوم على اجتراعها كي تشفى من ظلّ الآخر قربك، ولكنّك مع كل الاحتياطات، والإجراءات اللازمة للوقاية من تفشّي الخلايا العاطفية إلى جذورك، يتوغَّل داخلك برهفةٍ متعالية، يَسقيك نخب انتصاره عنوةً، ليُسكرك بعد

الرشفة الأولى سحراً، ويتركك تتخبط في ماء غوصك بغير هدىً، كأنك للتّوّ تتقن لغة العوم في شبر عشق.

هل تأخّرَتْ بمقدار الشوق، وتَوه الخطوات؟؟!!

كيف للحبّ أن يضيّع بوصلته، وهل لغير القلب صلاحية الإرشاد نحو السّمْت العاطفي المؤكد؟؟!!!

سيدلُّها أنه هنا، مرتاحٌ بصمته، محترقٌ بجمر اللقاء، موعودٌ بحرير كفها المنتظَر، هو من يعشق ملاحقة خطوط يديها، ليطبع قُبلاتٍ للتذكار فوقها كونها مسار حياة، وانحناءات لعمرٍ يمضي نحوها.

حمقى هم من يقبّلون المرأة على الوجه الآخر لليد، فليس ذلك إلّا بروتوكولاً تشريفياً أنيقاً ومجاملةً استعراضية يمارسها العابرون لنساء الصالونات، والاحتفالات الملكية.

يشتهي الآن أن يكتب، أيواعد الحبر، والورق على طاولته، مؤجلاً حلمه بها، تلك الآتية من بعيد ضيفةً دائمة إلى موعدٍ مع الروح – ليس من المروءة العاطفية والنبالة الفكرية أن يخونها مع عتاد رغبته، وأدوات حرفته – فالكتابة عن الأشياء قبل حدوثها تنجيمٌ مزيّف، ورياءٌ عاطفي يقترفه الكاتب، زيفٌ وجداني يحمل نبوءات شعورية غير صادقة، خيالٌ حسّيّ على هيئة كلماتٍ منمَّقة، دائماً هو على يقين بأن الماضي هو نهرٌ يمر بنا الآن يتدفق بين جبال الحنين، حاملاً حصى الذكريات المنقوشة بأسماء من عبروا، ينتشلها، ويجمعها، ليبني بها جداراً من الحروف يحميه من حاضرٍ مؤلمٍ، ومستقبلٍ مبهَم.

لن يخونها مع بياض الأوراق، وسواد الحبر، فهو يخجل أن

تقبض عليه متلبّساً جرم الأدب، هارباً من عالمٍ لا يشبهه نحو سرير البوح، يُفصِح عنها بوشايةٍ هامسة في أذن الليل، بإصغاء الخشب لحكايته، وانفصامٍ عمودي في تفكيره، حيث لا وجود إلّا لها، ولا صورة في باله غير وجهها.

أن تكتب في حضرة أنثى ما هو إلّا إهانةٌ لأنوثتها، حتى لو كان القلم مُخلِصَاً لها، فاضحاً لمعالمها، فذلك ليس من أدبيات، وأخلاق الراوي، فأجمل، وأنقى ما نكتبه عن الحبّ يتجلى في غياب من نحب، احتراماً لذكراهم، وطواعية من حبرنا أن يهديهم أرقى ما نشعر به دونهم، ربما ليعوّض عن فقدانهم بكلماتٍ توجز حجم المشاعر المتحركة بداخلنا، رمالاً تسحبنا نحو القاع في صحراء عطشنا حيث شمس سطوعهم تلذع قلوبنا، وتطهوها على فحم نواحنا.

لا بدَّ أن يشربها كقهوته، ليتركها تتغلغل في أحشاء قلبه، وفكره، وتَخلِقَ له مزاجاً أدبياً يليقُ بحضورها، يلائم حجم الشعور على كرسي عتيق، ليملأ الفراغ بجسد الكلمات، ومادية تعبيره عن أثر خطواتها فوق صلصال قلبه الغضّ.

ما أجمل أن نحييهم، ونشخصهم في سردنا الحياتي، أناسٌ من ورق كانوا هنا ذات يوم، بروحهم، وشغفهم، بنظرات عيونهم، ورائحة عطرهم، شاركونا ضحكتنا وأحزاننا، وكانوا على مسافة مفخّخة بالرحيل، ظَنَنَّا أنّها فسحة أمان تحوم فيها طيور الوجد، والعقبان.

يطلبُ نبيذاً أحمرَ، قانياً بلون دمه، في كأس زجاجي مكوَّر، كأنه نخب انتصاره على الوقت، وهزيمته أمام قسوة غيابها.

النبيذ مصلٌ مخمليّ معتَّق، نزيف الدوالي الأزليّ، دماء الكَرمة المقطَّرة برويَّة في منفى الطبيعة.

رشفةٌ متباطئة توحي بالهزيمة، لقد تجرَّع عصارة المحصول الملطَّخ بقدميها، تلك الريفية المتمردة، تدوس قلبه في محفَلٍ إغريقي لتثبت للجمهور بأن الخمر ما هو إلّا انبلاج الدم من قلوبنا، تستخلصه أنثى بخفّة الطيور، وثقل البازلت المقيم على نضوج ثمار المواسم العشقية.

ليس من عادته أن يتلذذ بكأس نشوته في مكان للعموم، كونه على يقين بأن النهل من عروق زجاجته لا يستطاب إلّا ضمن حدود المياه الإقليمية لمملكته، منزله الذي يشبه لوعته، دفئه، ووحشة قلبه.

ولكن ثمّة انجراف برغبةٍ لذيذة في النيل من عاداته، وطباعه، والخروج من القولبة الروتينية والقناعة البالية في التشبث بآراء، ومبادئ انتهت مدة صلاحيتها الفكرية، وجهات نظر سقيمة فضفاضة لا تتناسب ومتطلبات العهد الجديد في استنساخ بشريةٍ بلا ألوان تلهث وراء البهرجة البصرية، والضجيج الفاضح، يفكر، وكأنه مركز الوعي، والتفكير في هذا العالم، يقهقه بحسرةٍ، وينسى، هو الغارق في مستنقع الجمود، هل يلملم عتاده، ويرحل..؟؟!! أم بقيَتْ رشفةٌ أخيرة من ذلك الكأس اليتيم يناظره، ويتحدّاه، ربما مقدار ما ترسب من محلول الأمل، والاستجداء.

لقد فَرَضَتْ عليه حصاراً نارياً، يحرقه طيلة مكوثه هنا، غير قادر على اجتيازه وفكّه كيفما شاء...!!!

أضحى حبيس الزمكان، أنيس وحدته، رفيق كأسه، وظلّه

المفقود، مرهق البقاء، اتكأ على صدر الطاولة بكلتا يديه، ورأسه غارقٌ بينهما، مهزوماً، محارباً قديماً، متوَّجاً بخيبته، مكسَّر الشعور، مطعون الحلم، ملاحقاً لموسيقا مستمرة تأتيه من زاوية المقهى، لا يقوى على الحراك، مشلول الأعصاب والقلب.

إنّها طعنة الأحبّة، كما يظن، حين تتهيأ لملاقاة الحبّ ولا يأتي، يتّسع الفراغ بداخلك لتسقط في هاوية اللاوجود، وتُقذَف إلى فضاء لا جذب فيه، تتوه في ظلمةٍ دامسة، نحو عالم مبهمٍ لا روح فيه، قبيح كمرآة الكابوس المحتل لذهنك.

هل أضاع الحبّ عناوينه؟!! أيُّ ساعٍ للبريد سيوصلها إليك؟!!

كرسائل مُتْعَبَة، مُجهَدَة، متسخة الغلاف، كانت قد سقطَتْ بقصد، كي تنحني، وتلتقطها، وتزيل بأكمامك غبار هبوطها، وقطرات الطين الزئبقية فوق نسيجها.

أيكون الكبرياء الأنثوي مؤلماً إلى هذا الحدّ؟؟!!!

ثمّة رائحةٌ يراها، مغمض العينين، مستسلماً لحواسه المعطوبة بالخراب المفتعَل لهطولها، صوت حضورها الصامت دوماً، سمو كعبها العالي عن مستوى الأنوثة بأميال، جمالها المفتَرِس لحشائش قلبه، هالةُ روحها الحارقة لشمع هذيانه.

لقد اقتحَمَتْ زنزانته التي أودَعَتْهُ فيها، ونَسِيَتْ مفاتيح الضوء على خاصرتها كشمس الصباحات المتسلّلة نحو عزلته، أشرَقَتْ، على رؤوس أصابع اللحظة، عاريةً من الضجر، راقصة كحمائم الغدير المتهادية على سُحُب الماء الهائمة، كسكينٍ مسافرٍ في عَسَل فرحه، كحريةٍ استحقَّها معتَقَل بعد إدانته بجرمٍ

لم يقترفه، ولكنّه عوقب بالانتظار... وهل الأسر سوى انتظار ما لا يُنتظر...

كم من الأسرى خارج القضبان محكومون منذ الأزل بتهمة الحياة، فهنالك أبواب بلا أقفال، ومعادن، نُزَجّ داخلها لنرزح تحت سلطة القانون الأخلاقي، والاجتماعي في عالمٍ لا يعترف بالعشق إلّا في عيده، ولا بالعدل إلّا في سطوته، وكذلك بالحلم حتى تحقيقه.

أيّتها الريح بماذا أتيتِ؟؟!! وهو من شارف على لملمة أوراق قلبه عن طاولة المرافعة العاطفية.

يا سيد القانون، والكلمات... على رِسلك لم تُرفَع الجلسة بعد..

لقد كُسِرَ قفص الاتهام، والنقض حقٌ على الخصم، تمهَّل فالحلم يستمرّ هنا بُعَيْدَ الصحوة، والنشوة، لا تخلع رداءك الأسود، عتاد مواجهتك، وهاتِ بوردةٍ تَشْكُلها في خصلة شعرها، تلك الغجرية المتهمة بالرحيل، رشوةٌ عاطفية علَّها تعترف بما ارتكبَتْ من عصيانٍ وقتيّ داخل مملكتك.

هنالك وجوه تأخذ من الفرح صورته، لتتقمّصه، ويسكن ملامحها، تصعق الآخر ببرق ضيائها، لتشعل صهارة البراكين الخامدة منذ حقبة الأحزان.

وجهُهُ تفاحةٌ رمادية، زارتهُ هي، فلمَسَهُ قوس قزح، واستوطن فيه، وعيناها تاريخ من قصص الملكات الحائرات، ذبولٌ عنيف، قاسٍ، موجع إلى حدّ الذوبان، هو الشَغِفُ بتعبهما المرهِق الصارخ بهمسٍ مبهم.

كيف لنا أن نقبض على الجمال بتهمة الألم؟؟!!

أيّ أصفادٍ تطوّق سواعده، ومعصميها، وهل للحديد سلطة الإحاطة بسُكَّر قصبها، لا جرأة للقيود في فرض الخناق على أنفاس مساماتها.

كيف يلقي القبض على صوتها، ويترصَّد رائحة عينيها، تلك الشاهقة سحراً كأنها أغنيةٌ مجسَّمة تشتهي رؤيتها، موسيقا متحركة في البال لن تستطيع الإمساك بها على ذلك السلم المتدرج للعلامات اللحنية، هاربة كنغمٍ تَاهَ عن الوتر، لا يعود، كدخان الأفواه الشتائي يتماهى، والفراغ، كغيمةٍ ماطرة تُقبّلُ الأرض، وترحل.

عليه أن يعي بأنها أمامه الآن، مبتسمةً كوعدٍ قد تحقّق، منتصرةً على صبره، مرمّمةً نسيجَ قلبه بإبرة، وخيط من ثوبها الأنيق، برضىً، ومكرٍ نسائي، تُحيكُ جرحاً بين طيات شغافه، بلؤمٍ لذيذ، وحين تنتهي تقضم ما تبقى من مساره بشفتيها لتعلن انتهاء جراحة تجميلية لجرحٍ متنكّرٍ بهيئة ندبة لن تُمحى.

أيُّ مهارةٍ طبيةٍ عاطفية تملُك، بمبضع رموشها، وأدوات غيابها، استطاعت أن تفتعل جرحاً أثيرياً نازفاً بحروف اسمها، بحِرَفيَّة نسائية مدهشة، لتتركك مضرَّجاً بدماء قلبك المريض بها، ثم لا تلبث أن تسعفك على مهل، وتضمّد شهقة الوريد الموجوع، والمفجوع بسيطرة محترِفة تجنبك كوارث الانهيار، والانفعال المرتجل.

تضمّك إلى حضن حنانها، لتربت فوق كتفيك بدلالٍ مدروس، لتنساك مع الفراغ الوحشي، تصارع أناك، وغربتك عن ذاتك، تشقى بأوجاعك، وسقمك.

في مواعدتك لامرأة روحك، تسخيرٌ لطاقة الكون الكلية، وإعادة ترتيب للمنظومة الشمسية حسب مزاجية أحلامك في التغيير، والتعبير عن حيويتك، مقدار الفرح، والأمل الضاربين في جذور إحساسك.

تلتقط النجوم واحدة تلو الأخرى، لتجمعها في حقيبتها، تلك الصبية المتمردة على الاعتياد، والتكرار، الهاوية لجنون الأشياء، وتحوّلاتها.

وأنت حائرٌ في إحصاء عدد الضحكات واللفتات المحرِّكة لكل الشجن الذكوري فيك، ما نفع الأضواء وهي هنا، فالنساء لا يحتجن لسطوع ضوئي يكسو معالم وجوههن، لأن الأنثى تجعلك تنير الكهرباء داخل محجريك، ليبعث قلبك بإيماءة بأنك على ما يرام، تصبح هي أشهى عند خبو الأنوار حولكما، فالموارِبة هي السّرّ في الشغف، والغموض هو المحرك الأساسي في السعي نحو الآخر... إنّه فضول المعرفة العشقية الإنسانية في تقصّي أثر فراشةٍ لم تترك أيّ أثر، إلّا دمغة وجهها في البال.

أيّتها الريح لا تداعبي الخصلات، فهنالك وقتٌ لافتعال الحريق بداخلي، تموت الخطوات بيننا، ويحيا النبض على عَجَلٍ، ليقتحم صوت كعبها المسائي عراقة المكان.

لخطاها رائحة القدوم الممطر فجأةً، تسبقها العصافير نحو ذهولي، وترافقها النغمات لتطوّق خصرها كحزامها الذهبي، يلاحقها عطرٌ سقط من عُنقِها، التقطَتْهُ ذرّات الهواء فاضحةً لعُريه، وجمال اتحاده بندى أوراقها.

إنّ الحروف الثمانية والعشرين مزروعة في خاصرة وجداني

سيوفاً مبلّلة بالصمت، متمنّياً لأحدها أن يشقّ صدري فلربما تطير حمائم البوح من قفص اللغة، أنا الذي لم يجفّ حبري أمامها، لتغدر بي حروفي، ويخونني الإفصاح وقتها.

وهل هنالك أقسى من صخور التعبير بين يديها؟!!

بأي مطرقةٍ أو فأس تنهال عليها لتُصَدِّع جِلدها بقوة الإرادة، والنفس، بعضلات روحك المهزومة أمام الضغط، والزمن الجيولوجي في تراكم رمالها ضمن بحر ضياعك العتيق.

أنت من أضَعْتَ عمرك في التنقيب عن ذهب أقراطها، والبحث عن مكامن الجمال، والثروة الروحية داخلها، واستكشاف كهوفها المظلومة، والولوج إلى مناجم فكرها، آبار دموعها العذبة، قلبك المستحاثة العجوز، لا يصدأ أو يتلاشى، فقط قليل من الغبار الطبيعي يزول بنسمة من ثغرها، وربما هي بسمةٌ كالشمس تؤذن برحيل الضباب من الأفق البصري لرؤيتك.

من يبيعني الكلمات، قليلاً من الحروف بثمن دمي، عند أبواب الله أقف: "لله يا مُحسنين"، جائعٌ لا أريد سوى خبز التعبير لأسُدَّ رمق الحبّ التائه، وأُطعِم كل المساكين العشّاق من دقيق الأدب، وأسقيهم ماء اللغة حين تستعصي حناجرهم، وألسِنَتهم على لفظ أنفاس ارتباكهم، وحيرَتهم.

كنتُ على يقينٍ دائماً بأن قلبي ككلماتي، أوراقُ خريف، منهم من يدوسها، ويتلذّذ بسماع صوت دهسها عنفاً، وآخرون من يعلّقونها نياشين على صدورهم احتفاءً بها، بضمِّها، ولثمها كأن الوداع سيَهِلُّ عليها، ويصيبها بخيبة العمر.

أشحذُ نظرات الروَّاد من حولي، ليشهدوا مقدار الجمال

المؤلم عند منعطف الحروف ليروا ذواتهم من خِلالي، أنا الناطق الرسمي باسم النفس حين تسمَمَتْ بجرعةٍ زائدة من الحب، وأضحَتْ مصابةً بداء الدهشة، ومتلازمة الصمت.

وحدَها المرأة تستحق الكلام من رجلٍ أردَتْهُ قتيلاً، شهيد الحب العفوي، فهي تجيد الإصغاء، وتعشق الحديث، والحوار المرتجَل، تحاربك بسلاحك المفقود، بعجزك عن الثرثرة اللغوية معها، والأصعب من ذلك هو التكلم، والاعتراف لها بما تُكِنُّ، مجرَّداً من حبر صوتك، وقرطاس إفضائك.

تشعر هي بانتقاصٍ من أنوثتها، وبفشلٍ ذريعٍ في إشعال حطب غرائزك، وذكوريتك، مهما أظهَرَتْ من قوّةٍ، وثقةٍ مدجّجتين بالأنوثة الصارخة، ولكن عندها لا تدرك هي حجم العبث، والبعثرة النفسية التي تصيبك، نيازكُ تضرب كوكبك على غفلةٍ، ولهفة، ارتباكٌ كونيّ مذهل ينازل منظومتك الحسّيَّة، لتصبح فاقداً لقدرتك، وفطنتك، معطوب اللسان، والأفكار، والكلمة.

– مساء الخير... عذراً على التأخير...

– تأخرْتِ عن موعدي مع الرحيل، لي مع الوقت عهدٌ بألّا أخونه في غيابه، لقد فرَّ من ثواني العمر، وخَرَج عن متاهة مزاجك ليسكن في بالي، وأصبحتُ أنا هو، ضحية الإهمال، والنسيان، شريد الأيام، والذكرى، هارباً من وعورة الحياة، وقسوة الحقيقة.

– أتظن أنني خنتك مع الوقت؟؟!! وأنتَ منتظرٌ قدومي، لست من يهوى المماطلة العاطفية، وكسب المزيد من اللّذة السادية لقهر رجل، فأنا بسيطةٌ في الحبّ والتعامل، لا مآرب لي سوى حرية القلب، وسطوة المشاعر على مدن حياتي.

– أتخبرينني عن ذاتك؟!! وأنا من كان شاهداً على طهر قلبك، ونضج خبز وجودك، مَنْ كوَّن فخار كيانك، وشكَّلهُ بالكلمات، أنفقتُ ليالي السهر في رسم وجهك بالحروف وتلوين سمائك بزرقة البحر، ليت الورق ينطق بصوته، لتدركي ما حصل في طيَّات أيامي.

إنّها مناظرة روحية بين قلبه، وعقلها، تلك الأنثى الشهية حتى في محاورتها. تباً لقلبك أيّها اليائس، ما زال نبضه يلاحق صوت ضحكتها الشاهق، وعيناه محدقتان بلآلىء بارقة في ماء مقلتيها، فالحديث معها تورطٌ حقيقي، وإرباكٌ ذهنيّ يُحدِثُ شرخاً بين عقله الفار من المنطق، وقلبه النازف بسهام منطقها.

شَعَرَ بأنها تحدث نفسها بما يجول بينهما، تستقطع مونولوجاً ذاتياً بصمتها، لتكسره بسيجارة من محفظتها، ويهمُّ هو بإشعال نارها من جمر أصابعه.

– قهوة؟

بكبرياء متهكّم، ونظرةٍ شبقية:

– بلا سُكر، عارية كما ولِدَتْ من رحم الأرض، بلا إضافات أو رتوش.

يتمتم في سره:

"مثلكِ تماماً، فنحن نختار قهوتنا بما يتلاءم ومزاجنا، وتفاصيل شخصيتنا، تريدينها "سادة" كالعادة، أهي مصادفةٌ أن تحمل معنى السيادة، والكبرياء الأنثويين؟؟!! أفهمُ جيداً أنها ستكتسبُ مذاقاً حلواً حين تلامس شفاهك، كأنها أنا عند اقترابي من حقول النار حولك".

– دائماً جميلٌ أنا بكِ، لا أرى نفسي دونك، فقط أريد أن أتأملكِ صامتةً برفقة فنجانك، وتبغك، ولون عينيكِ.

في كل الأوقات، يشعرُ بأن المرأة تصبح أشهى حين تمسك بسيجارة بين أصابعها ذات الأظافر المطلية بالأحمر القاني – على الرغم من أثر الرائحة التي يخلفها الدخان على معالم المدخن، وثيابه – بتبرجها، ونصاعتها تنصب كمائنها للمواعيد مع الحبّ، والرغبة، والأكثر قسوة حين ترافقها آلةٌ موسيقية غربية، فامرأة البيانو، التشيللو، أو الكمان، تمتلك جاذبيةً ساحرة تجعلها تمرر الموسيقا بين ضفائر شعرها، وتطلق النغمات بأنامل شهية كأنها تعد لك وجبتك المفضلة على لحن من حب.

نحن معشر الرجال، نفكّر بغرائزنا، بحيوانية فاضحة، نحرص "دون قصد" على التهام ما طاب لنا من الـ "Menu" المقدّم لنا، لنختار منه نساءً وطعاماً وشراباً لا يكفينا حتى لو تُخِمنا من فرط دسمه، وغزارة حريراته.

من المؤكد أن الغرب قد أوجدَ العلاقة الواضحة بيننا، وبين المرأة، والموسيقا، هذا الثالوث العجيب في ارتباطه، فالمرأة تقودنا إلى الموسيقا، والعكس صحيح.

فكيف إذا كانت أسهم الأنثى، واللحن قد توجَّهَتْ إلينا، ونحن مسلِّمون بكل طواعية، وقناعة، بما سيحدث من كوارث نفسية رائعة ستصيب قلوبنا التي ستحلِّق فرحاً، وحماساً، وهتافاً لمملكة النسوة، والنغم.

ثمّة دخان يحوم حولها، رائحةُ قهوة هاربة من الفناجين،

وموسيقا بطيئة الإيقاع، مشهدٌ دراميّ يشعل الحواس، وهنالك كلام لم يُقَلْ بعد، وآخر لن يقال.

لقد بعثَرَتْ إدراكه للأشياء، روحُهُ سكرى بها، كيف يقاوم إغراءها المدروس، نجمةً سينمائية تشعّ في سماء مسرحه، شقية الحُسن، غارقة الوجد، عفوية الإشراق، حيوية الإدراك.

بعد صمتها المطبق، تتابع عند انتهائها من سيجارتها:

– لماذا لم تكتب تعليقاً على صورة نشرتُها على الفيسبوك بالأمس؟ أو حتى تُعجَب بها؟

بابتسامة ساخرة:

– كيف لي كغيري أن أضغط بلمسةٍ ما، دليل الإعجاب، وأرحل، ما بين القرار، واللمسة دهرٌ من شرود، ولا أظن أن الوقت كافٍ، والمساحة الفراغية الافتراضية المسموحة لي بأن أبوح بما يراودني وقتها.

يا صغيرتي، الكتابة عن شيء ما إذا حُددَتْ بحجم، وشكلٍ ما، تصبح معلَّبة جاهزة ذات صلاحية معنوية منتهية بعد أيامٍ على تاريخ توثيقها.

أنا لا أحبّ الإيجاز في كل شيء، كل العبارات، والقصائد التي كتبتها لك، ما انتهيتُ منها إلّا، وقلبي يرتعش، وعيوني دامعة ويداي ترتجفان حبّاً، تعودتُ دوماً أن أنزف لتسودَّ أوراقي، ثم أمضي في أسفلها بدمي، وأرميها بين يديكِ.

الواقع الافتراضي لا يشفي الغليل، تلك المشاعر الإلكترونية، والمجاملات المتوقّعة، الصور، والألوان، الدقّة العالية في "بكسلة" القلوب، والأجساد، والعواطف، تعبيرٌ جمعيّ ثابت عن

مزاجٍ عام يشترك فيه الملايين بوجوه صفراء ضاحكة، وباكية، متجهمة، وغاضبة، ما هي إلّا اختصارٌ لوقتٍ أرادوه لنا على عَجلٍ، كوجباتنا السريعة، حبّنا المتعاجل، وقراراتنا المستعجلة، في عالمٍ نعود فيه إلى البداية كلما قفزَت بنا الحضارة إلى مرتبةٍ أعلى من سلم الوجود.

لم تكن تريد سوى إطراءٍ تجرّدُه إياه بتلك الصورة التي عرضَتْها على صفحتها، ومن حولها الثلوج، والجبال المطلية بالبياض الكليّ النقي.

كان يودّ أن يقول لها: "ليتني استطعتُ استعارة ذلك الثلج، لأنقش عليه كلمات تعبّر عن إعجابي بطقسك الشتائي، لكان بوحي موجزاً لما يجول في داخلي من حنين لك، وأنتِ محاصرةٌ أمامي في لحظة مسلوبة من الزمن، ستبقى في بال قلبي، رغم ذوبان كل ما حولك، وذبول الوقت بيننا..".

ولكن أبى أن يبوح لحفظ كرامة روحه المحترقة بجليد نارها!!!... ينازلها كخصمٍ عتيد، ويعلم أن قلبه مفطورٌ بتنهدات أنفاسها.

يشعل سيجارةً، ليحرق تبغ الواقع بنار الأمل، يراقبها بين أشلاء دخانه، يغويه امتزاج عطرها برائحة التبغ، ربما علينا أن نحرق ذواتنا بعطر الآخرين، ودخان سجائرهم كي تتسلّل إلينا مفرزات نفوسهم، ونثرات أفكارهم، ويتسنّى لنا استنشاق ذاكرتهم الخفية، والولوج إلى عالمهم الحاضر دائماً في أذهانهم.

ذلك المزيج يقوده إلى التفكير في طريقة ما نستطيع خلالها التقاط الرائحة ومشاهدتها، ليس على طريقة "جون باتيست"

في رواية "العطر" أو حتى استحضار طريقة فرعونية ما تفي بالغرض، من المؤكد أن الصورة تقودنا إلى الرائحة، وكذلك الروائح حين نستعيد استنشاقها من جديد، ستعيد لنا صوراً، ومواقف ووجوهاً وضَعَتْ يدها على صكّ ملكية ذاكرتنا، لتخبرنا بأننا لسنا الوحيدين في حق ميراثها من ماضٍ رحل عنا قبل أن يترك وصيته.

تتمتم بلذّة:

– "جميلةٌ هذه المتقدة في يدكَ، تضفي عليك سحراً ذكورياً أعشقه، كأنك إله نفسك، تنفث بقايا روحك على هيئة دخان، بترفٍ مكابر، وصمت العقلاء المفكّرين".

– أعشقُ وصفكِ لي بذلك الإيجاز المتقَن، والحرص على عدم الخوض في متاهات المعاني، والتأويل لكمائنك الصوتية، تنصبينها بروح صيَّادٍ راصدٍ لفريسته بحماسٍ، وترقّب شديدين، ومتعة خاصة في الحظي بقلب الطريدة، والنيل منها بجهدٍ لذيذ، إنّها غريزة الأنوثة الصاخبة حين تعلن قرارها بشنّ هجومها على روح رجلٍ، مرهق الإحساس، مرهف الرؤية، معطوب الكلمات.

بعتبٍ منسيّ فوق شفاهها، تسقط الحروف:

– أنا لا أجيد نصب الفخاخ للنسور، أنت هائمٌ فوق قمم الجبال، تشدو بحُزنك كطيرٍ عجوز يأبى أن يستسلم في مواجهة الحياة، محلِّقاً بألف جناح تأخذك الريح صوب فضاء اللاعودة، نحو مصيرك المتعالي.

يناظرها بحبٍّ وعيونٍ كوجه بحيرة مشرَّعة للشمس:

– تروِيني كلاماً، يخرج كنبع الصيف من صدر الجبال،

كالمطر النازل فوق حقول السندس، حبر صوتك كالماء لا يجفّ، ولا يبتل.

أنتِ شيطانة الفكر، والروح، لا تتمرّدي على سلطة حروفي وتوقّعي إمضاء مرورك عبر نصوصي، أرجوكِ لا تكتبي النص وحدك.

تردّ بصوت واثق، ونبرة هادئة:

– أرى نفسي بين سطورك أميرة رواياتك، أنا الملهمة العابرة المستقرّة، المجهول، والقادم، أفرغني من قرطاسك واملأ أوراقك مني، فأينما ذهبت ستجدني ألاحق ظلك، مستلقية تحت شمس أفكارك، أسيرُ ليلاً على تخوم شواطئك، حوريةَ فِكر تخرج من أعماق محيط هذيانك.

بصوتٍ متهدج عاشقٍ يشدو:

– كم أتمنّى أن أشعل أصابعي شمعاً، وتطفئيه، لتضحكي بين تكات الثواني الماطرة...

أنتِ الغامض الشيّق، لهفة الأيام، غيمةٌ ملونة تمرُّ بسلامٍ دون أن تلقي السلام، وأنا الأعمى التائه في الدروب بلا بوصلة عكازته، منتظراً أن يتذوق اللون من صوت عينيكِ. لا ترسميني على صفحات الهواء، فالريح هاربةٌ دائمة من السكون تأخذ معها أصواتنا، وكلامنا، وأوراق الخريف المحترقة.

اهطلي ربما ينبت الوقت بيننا، أطالبك بالهطول طقساً شتائي المزاج لأنني عاشق لرقص المطر، تتركين بي الأثر ذاته الذي ينساه المطر في الأرض، تهدينني كل الأسباب، لأحبّك أكثر، وتعيشين بي أكثر.

يعتريها الذبول تلك الفاتنة... عُمراً:

– لا تكويني بفيروز ألمكَ لأنني سأشتهي لذّة تعبك، قلبك الحنون، وروحك الجيَّاشة، عيناك المفعمتان بالحياة، شغفك في البحث عني دوماً.

أنا قطرة المطر الساقية لروحِكَ المتعبة، لأرضِكَ العطشى، لحبٍّ لم يوجد بعد في الكتب، والحكايات، ولكن أخشى أن تكون غيومي بعيدة عن استوائيتك.

ما أصعب أن تجفّ روحك أمام كبرياء امرأةٍ من حديد، ومشاعر، أن تسكُب كُلَّكَ في كأس زجاجي يوضع على طاولة الوعد، ليقدَّم لها على طبقٍ من خشب، كأنك مادة أساسية في قائمة الطلبات الحاضرة لمقهى يأخذ العشّاق على عاتقه، ويحميهم من ظلمة الطرقات، ووحشة النظرات.

أنتَ الآن في وطنك الحميم، محاط بلغز وجودها، وعتمة وضوحها، فوق أرض ذاتك، تحتاج لجيوشٍ من العبارات لتحصِّن مملكتك من السقوط أمام اقتحام شمسها لغرفتك الموصَدة بمفاتيح الكلمات السّرّية، الموجِزة لأحرف اسمها الليلي.

– نضجَتْ ثمار حبّي يا صبية، لقد تأخّرنا عن موسم القطاف، وقلبي تفاحةٌ تسقط على أرض الروح فالتقطيها، اقضميها كأنها آخر ما بقي لك من ربيع الفصول، وألذ ما طاب لمذاقك من فاكهة الذكرى المعطوبة.

بابتسامةٍ طفولية لا تخلو من الهذيان:

– قلبُكَ حاضرٌ دائماً بين يديّ، أنا من زرع بذوره الأولى في حديقة العمر، ولكن دون عناية منّي، لقد أودعتُهُ في كنف

الطبيعة، تركتُهُ في تراب النسيان، وإذْ به عاد إليّ، وأنا التي ظننتُ بأن الرعاية الإلهية ستتكفل به، كطفلٍ أُودِع في مكان ما، هجرَهُ أهله بعد خطيئةٍ مفتعلة، ليسخر القدر منهم بعد سنوات، ويلتقي بهم في شوارع الصدفة ومفترقات الطرق الحياتية.

أدركُ أنك يتيم الوجدان، شجي القلب، مطعون الإحساس – وهذا ما يجب أن تكونه أنت – ولولاه لكنت معافى من سقم الشعور، زاهياً دون تكلُّف، لأن الجمال يكمن حين نفقد جزءاً من راحة نفسنا، أن تتساقط بضعة أحجار الفسيفساء عن جدار حياتنا، كي نبذل جهداً، ونشقى في ترميم العطب، والفراغ المتروك بفعل الكوارث، والزلازل التي أصابت أعماق وجدنا.

رائعٌ أنتَ، بندوبك، وجروحك، وآثار المعارك الروحية الشاهدة على صراعك مع ذاتك، والحبّ الكامن بداخلك، وأنا بطلة قصتك، جالسةٌ بين جموع المشاهدين لنصفّق لعذابك، وقدرتك على أداء دورك الفعلي على خشبة الحياة.

لا ألم أكثر حين يكون الداء، والدواء شيئاً واحداً يعترف بجريمته، وينكرها، يدسُّ نفسه في قهوتك، تتذوقهُ برضىً، وقبول تامين، مدركاً حجم الطعنة المسافرة في صميم عينيك التائهتين.

تلك القريبة بمقدار خطوة، تحترف مراقبة دمارك، ونضوب كلماتك في حضرتها، لقد أطلَقَت النار على أبجديتك، وأحرَقَتْ احتمالات البوح أمامها بأي شعور، سقط جدار التعبير فوقك، ليكسر عظام حروفك، أصبحتَ شهيد عينيها، بعد أن اخترقَك رصاصها، ليتناثر على هيئة ركام.

تلك المتقنة لحوارٍ أدبيّ، بكلّ حرَفيَّة، تصفعُهُ بردودها

المعلّبة في مخزن حدسها، تنهال عليه بلكماتٍ كالكلمات تصرعه في حلبة دمشقية، أرض عشقه، وميدان بطولاته.

ينظر إليها بحميمية كأنه يودعها، فبعض النظرات تحمل في طياتها صيغة الرحيل، علّنا نكون أجمل حين نغيب!!

يخشى لعنة الفراق بعد لقاء، وهو يدرك أن اللقاء ليس سوى استهلالٍ لوداعٍ محتَّم، ولكنّه لن يقطع خيوط الأمل الواهية الممتدة نحوها، سينتظرها رغم الانكسار، غير معلنٍ لساعة الصفر العاطفي المحمّلة بالخيبة، والهزيمة.

لقد تنصَّلَت بكل هدوء من مسؤوليتها الأخلاقية، والعشقية عن كل ما سيلحَق به من خراب، واحتراق حين تتسلّل هاربةً على رؤوس أصابعها تحمل حذاءها بأناملها، يرافقها الصمت نحو حرية قلبها ومزاج لهوها.

لن تسأله عن طقسه النفسيّ، وتداعيات المهاترات الكلامية، وأبعادها، تريد فقط أن تحيا برفقته لوقتٍ خارج الوقت، بلا حسبان، هروباً من التوقيت الملائم لتلك النظرة بينهما، والتي توجز أنهاراً من الأحاسيس المتدافعة نحوها، لتصبّ في بحر سكوتها المربك.

لم تفكّر في صيرورة العلاقة الإنسانية معه، بل اعتبرَتْ أن وجودهما معاً تعزيزٌ لمحبّةٍ لَمَعَتْ يوماً، حين التقيا صدفةً، وأصبحا أصدقاء حتى إشعارٍ آخر منه.

تشعر بأنوثتها، وكيانها قربه، يعرف كيف يشرع الأبواب أمام اقتحامها لخلوته، وقدرتها على إعادة ترتيب منزله الداخلي، وقلب أوراقه عن منضدة الليل.

تريد أن ترقص على إيقاع أحلامه، ونغمات البيانو المنسي في بهو المكان، يعزف فوق أصابعها ألحان خيبته، وفرحه بها.

ينظر إليها مشتاقاً لها، وهي القريبة من أنفاسه على مرمى قبلة منه، يمسِكُ يدها، ويهرب بها نحو الباب المفضي إلى الخطوات المبعثرة، إلى عالم شاهدٍ على قصّتهما، وفضاء لا محدود من الأمنيات العالقة في تشابك أيديهما.

عابراً في أزقّة الحبّ، محتفظاً بيدها كي يتصبّب عرَقُها فوق خطوط كفّه، يريدُ لعطر كفها أن يذوب في حنايا قلبه، ذلك الالتحام بين الخشونة، والنعومة يحمل المحبّة والخوف والأمان، تتمنّى أن تنسى يدها في حضن يديك، أن تكون أصابعها لك، تزرعها بدلاً من أناملك، تشعر بها حين تلامس قلبك، كأنها هي القابضة على شرايين خطواتك.

يعلم أن عناقه ليدها، ما هو إلّا إرهاص الفراق، يضغط لحمَها بحرصٍ، وملكية ذكورية، كمن يودع المسافر عند أبواب الرحيل، يلاحق عروقها، ومسارات خطوطها، متلذّذاً برحيق العطر المتعرق النازف من مسامات روحها.

يجسُّ نبض زندها خلسةً، ليقرأ صوت قلبها حين يبوح بالدم، ويدرك خفايا الصمت المرافق لحواسها.

يفتش في عينيها عن مصدر البريق المستمر، وذلك الحنين المكابر لما حولها، ثمّة عشقٌ للحياة لا يملكه أحد، تشعر هي به، شغفٌ في ممارستها بأفراحها، وشجنها، تعبٌ لذيذ يستوطن عيون الفتاة العربية يجمّلُ روحها لنرى خلالها جمال واقعنا المرير على هيئة أرقى، وأسمى، تلك العيون آخر ما تبقى لنا من أساطير،

وحكايات يحقُّ لنا أن نتحدث عنها فيما تتركه من أثر في مساحة قلوبنا المعطوبة بمِديَة الشرق.

تحدهما الأوابد الأثرية، أزقةٌ، وممراتٌ ضيّقة، قناطرُ من ماضٍ جلس فيه عاشقان تحت مظلة الأحجار الكلسية المنقوشة بالريح، والرمال، في ظلّ شمسٍ لا حدود لضوءها، وهما اليوم شاهدان على ذكريات لأناسٍ كانوا هنا، وغداً سيمرُّ أحدٌ ما ليلتقط رائحتهما العالقة بين شقوق قلبيهما المتصدعين... وداعاً...

اليوم يتمنى أن يسترجع كل ما مضى بتقنية "الهولوغرام"، ذلك الإسقاط الضوئي، والتكوين البنيوي للأشخاص، فعلٌ مسرحيّ، واستحضارٌ لماضٍ لن يعود... ما أسوأ أن يتدخل العِلم فيما لا يعنيه!!!

أليس ما يفعلهُ هو مشابهٌ لآلية تلك التقنية، ولكنّه إسقاطٌ على مسرح ذاكرته وخيالاته، مستدعياً تاريخ قلبه وضوء عينيها.

هي مهمّة الكاتب، والقارئ في خلق مشهدية تصويرية، ينسجها الأول بخيوط الفكر، وتجارب الحياة، ويتلقفها الأخير بصورة رموزٍ، وحروف تحمل إيديولوجية الكاتب، ليقوم بإعادة إخراجها على طريقته عند بوح النصوص له، لتكتمل الصورة في ذهنه، ويتكوّن عالم غامض في باله نتيجة قراءته، ومتابعته لكل ما خطر في وجدان العالم الناتج عن سردٍ واقعيّ يشعر به، ويدركه كأن المقصود هو، بلسان الكاتب وحبره.

يفضِّلُ الحبر الأسود المسال على جسد الورق، يطلبه من النادل، ويكتب بدمه عبارةً لن ينساها كوجهها الناصع، تمنّى لو حَفَرَها على خشب الطاولة بسكين ذاكرته، كما يفعل العشّاق

على جذوع الأشجار الهاربة من المدن، لتبقى الكلمات مهما طال الزمن، لأننا نخشى دائماً أن يضيع أجمل ما نقول هباءً مع أدراج الريح، لذا نحتاج إلى الماديات لنرسخ ما نفكر به ونقوله، كي نلقي القبض على الكلمة، والصوت، ليتنا نستطيع التقاطه لرؤيته، وملامسته، ولكن بعض القضايا من الأروع أن تكون عصيّةً على الحلّ، لتخلق إشكالية جدلية يطول الحديث لها كهاجسٍ يستحيل تحقيقه، لنشقى نحن بعذابنا الجميل، ويتجسد الدافع الأساسي في السعي، والإبداع نحو اللامحسوس.

"لأنكِ الأنثى الاستثناء... أحبّكِ...

ولأن العمر بين يديكِ.. حريقٌ عشقيّ المعنى... أعشقكِ...".

أنحتاجُ لحريقٍ معنويّ كي يشتعل الإحساس بداخلنا؟؟!!

وحدها الكوارث تجعلنا نصحو من غفلة الحياة، تصدمنا أحداثُ أيامنا، لنصاب برضوض عاطفية، وكسورٍ روحية تقسم ضلوعنا، لتستقرّ في قلوبنا بعد حادثة الندوب التي لا تتكرر.

من المؤكد أنها كانت الاستثناء، تلك التي أوقَدَتْ حطب الحبّ في غابات ذاكرته، أضرَمَتْ نيران دمه، وقود قلبه، بمشعل اللقاء، والأنوثة لترديه جثةً صامتة في أرض ضياعه.

هل يضمنُ له ذلك المنديلُ الورقي ديمومة عبارته، وهذيانه؟؟!!

لقد باح بأجمل ما كتبَ لها فوقه، وهو يعلم أن الطريق إلى سلّة المهملات لا تتجاوز خطوة حبّ، ورقةً واهية مبتلَّة بحبره، مستسلمة لمزاج الريح، سيطويها مرتين بعد أن يتأكد من جفاف الحروف بنقاطها، وفواصلها، قُبيل يباس الموعد بينهما، وأوراق الوقت عند قدوم خريف الوداع.

يعلم أن من يأتمِنُ منديلاً على اعترافه، سيلقى مصيراً مفخّخاً بالشقاء، أيسخر منه القدر لأنه نقش أثمن حروفه فوق خيوط السيليلوز المصنَّعة لمسح ما يمكن محوه!!!

بكتابته على منديل عادي، اعتقَدَ أنه يرتجلُ طيشاً عاطفياً مؤثّراً أمامها، لتُعجَب بجنونه، وطريقته في التعبير عمّا يجول في عوالمه، ولكنّه لم يكن يدرك بأنه كلما استمرّ في الكتابة، محا سطوراً من الأمل في تتمة كل ما يحدث بينهما، وأجهَزَ على حياة حبٍّ مقدَّرٍ له ألا يكتمل... وألّا يُنسى في كتب التاريخ العشقي.

يقدمهُ لها، مطوياً، مرتَّباً بهندسةٍ كتابية، وحِرَفيّة أنيقة في التعامل مع رقائق الهدايا وأبسطها، في الوقت الذي تتوسّد كفّها بدهشةٍ صامتة، تُقَدِّم له بريق عينيها عطاءً عبر أثير الإعجاب المؤكّد، علّها تحتفظ به حتى تذبل معانيه، ويهترئ نسيج مادته، كأوراق الزهور، نحتفظُ بها بين طيات أوراقنا، وأغلفة كتبنا، فلربما تنمو ياسميناً ذات يوم يمتدُّ نحو أذرعنا، متسلّقاً أجسادنا ليحيا في عرش قلوبنا.

من المؤكد أن أساليب الحبّ، وسلوكياته لم تتغيّر، ولكن تتبع أهمية ما نقوم به في مدى عفويته، وصدقه حين نُعَبِّر عنه بأنامل أرواحنا، نرسمه في الفراغ فوق صفحات الأثير لأننا نريد أن يدوم طويلاً لفترةٍ تتجاوز سنوات عمرنا، فلربما تاهت مذكّراتنا، واحترَقَتْ غرقاً مع سفن الرحيل.

في الحبّ... لا بدّ من افتعال التذكار، أشياءُ مادية نؤرّخ بعدها زمناً سيمرُّ دونه أو معه، فمن الواجب الأخلاقي علينا أن نصنع ذاكرةً لا تُمحَى بممحاة الأيام، نستعيدُ ماضياً من خلالها

بدفعٍ معنويّ من وديعة بين أيدينا، نسافر فيها، لنستحضر صوراً، وأحداثاً، وجهاً نَظَر إلينا مرةً ليس كبقية الوجوه، عيوناً لمَعَتْ ذات يوم كأنها نجوم الكون جمعاء، يداً أمسَكَتْ بيدنا عناقاً، لنشتهي بقاءها، ومكوث عطرها، رافضين انسحابها من حضن إحساسنا، محتفظين بملامسة نعومة انثناءات جلدها، فرحين بهيئة أظافر أناقتها المدموغة بطلاء العذوبة الأنثوية، شاعرين بتدفق النسائم من مسامات روحها، مطالبِين بوقتٍ أكثر، وعُذرٍ للبقاء، لتكتمل دورة دمِكَ في عروقها.

يريد منها فقط ألّا تنسى، مهما حصل، كأنه يختزلُ وجوده بتلك الذكرى البسيطة في صناعتها، والقيّمة في مكانتها، وهي لا يتوجّب عليها سوى الاحتفاظ بما قُدِّمَ لها، تُودِعُهُ في حقيبتها، ليُصبح ضمن أغراضها، وحاجياتها الملازمة لها أينما تذهب.

لا يعلم بالتحديد أين سيستقرّ ذلك المنديل، ربما في أدراجها أو في أحد كتبها، كما يُخَيَّلُ له استناداً لمعرفته بها، وحرصها كأي أنثى على الاحتفاظ بما يعنيها.

ستقاوم النسيان طالما هنالك ما سيذكرها دائماً به، يُدرِكُ تماماً أن للنساء ذاكرةً مخيفة في تكوينها، ترفض إزالة كل ما تمَّ تسجيله على شريطٍ سينمائيّ في مسيرة الحياة، للمرأة القدرة على استحضار التفاصيل والجزئيات، وهذا ما يطمئن فؤاده ويريح هاجسه في احتلال تاريخها، وجغرافية وطنها.

– 7 –

"ليس لك إلا النسيان، أيها القلب،
لربما تغفو لهنيهة بعيداً عن المأساة، لكنني أدرك عجزك الصريح،
فكلما نظرتُ إلى المرآة لاحت ندبتها في معالم ذاتك.. هي لعنة الفقدان...".

كان ذلك في عام 2011، مجموعةٌ من الأعداد لن ينساها السوريون، شكَّلَتْ ندبةً على وجه كل شخص، تتشَّق هواء الوطن، ولَعَقَ ملح أرضه.

في تلك السنة تحديداً، أدركنا أننا سنفقد الطمأنينة مدى الحياة، وسيكتب الشقاء، والحزن فوق جباهنا، لتعتلي رؤوسنا دوامات من التعب، والهمّ، والأسى لسنواتٍ لا ندري مزاج أيامها.

هي نكبةٌ ميتافيزيقية، لشعبٍ لم يتسنّ له أن يحظى بفرصة للنجاة من مركَب العيش اليومي، حتى أصبح مُبحِراً بقوارب مطاطيّة صوب المجهول، حَمَلَتْ معها الأحبّة، والأصدقاء، والأقارب، كلهم تركوا خلفهم كنز أحلامهم المفقود، باحثين عن خارطةٍ جديدة بمتاهاتٍ تنبؤيّة غير محسوبة، لقد أعلنوا هدنةً مع البحر وآمنوا بمرونة قواربهم، وقسوة هواجسهم، ولم يعلموا أنهم طُعْمٌ لقرش محيط الغرباء، وكانوا على علمٍ بأن المحاولة أفضل من السكون في ظل أنفسهم، وأن الجُزُرَ لا بدَّ أن تفتح ذراعيها للمبحرين نحو الأمل...

عام اللقاء... عام الفراق...

أيُكتَبُ لنا مصيرٌ مشتركٌ مع أوطاننا؟؟!!

ربما كانت عدوى النكبة الكبرى، فبعض الأمراض الوطنية تنتقل عبر الأثير، حين نكون ملتصقين كالجذور في تراب بلادنا.

أيُقَدَّرُ لنا أن نلازم الأوطان في خرابها، ونقاسمها خيباتنا، وأحزان فقداننا لمن نحب، فمن المؤكد حين تخسر وطنك، سيهزمك الحبّ، ستُصبح مفجوعاً بالخسارات، والفاجعات عالية المستوى، ما أكبرها من مأساة حين تتلقّى عدة ضربات موجعة، وأنت غير مستعدّ لهول المصائب وانهيار الأحلام.

تشعر بأن الكون يدسُّ لك سُمَّ الموت البطيء في أغمار روحك، يلقِّنُك درساً لن يتكرر، عقوبةً لك على ما اقترفْتَ من رغبةٍ، وأمل في كل ما يحيط بك.

يضربُك الزلزال مجدّداً، ولكن هذه المرة، بقوّةٍ تفوق المتوقّع، متجاوزةً حدود مقياس هزّاتك الوجدانية، مجتازة لشغاف قلبك المتصدّع، لتطعنه بموجات عالية التردّد، عصيّة على الرسم فوق أوراقك الهندسية، مبهمة غير قابلة للتفسير، والتحليل النفسي.

في تلك الجلسة المميزة بينهما، كان قد أهداها قرصاً صلباً يحمل عنوان: "إيه في أمل" بإمضاءٍ غنائي من فيروز، ذلك الألبوم صدر قبل عام من موعد لقائهما، آخر ما غنَّتْهُ في التوقيت المعاصر بمثابة واقعةٍ فنية تحمل توقيع الرحباني الابن... زياد.

دائماً ما تكون الهدايا تشبه أصحابها، معبِّرةً عما يمتلكونه من هواجس، وأحلام، وقدرات ماديّة أيضاً، كذلك تحملُ حبّاً أو مجاملة اجتماعية، وربما واجباً تجاه متلقيها، لكنه أهداها صوتاً يتملَّكهُ لا يمتلكهُ، أراد أن يُعبِّر عن حبّه بأجمل صوتٍ سمعه طيلة حياته، كأنها كانت "مرسال المراسيل" لها، يمرّر لها

مضموناً إرسالياً يبعثُ على الشجن، والأمل المبتور، والوصف المتعالي بأميال عن واقعية الحال، كأنها هي من يغني، ويشرح كل ما حدث، وسيحدث.

أحياناً، ثمّة أغنية توجز مرحلة، وتجربة من حياتنا، لذا نتعلّق بها كغريق في محيطٍ هائجٍ، لتسعفنا من لُجَّة مصيبتنا حتى لو كانت تصيب مقتلنا، وتذرف دموع أرواحنا، لكنّها تضعنا أمام مرآة حقيقةٍ نهرب منها كي لا نشقى بعذاب حريقنا – ذلك الحريق المعنوي فوق المنديل – من الواضح أن اللاوعي قد جَعَلَهُ يكتب مصيره على خيوط واهيةٍ تشتعل برقّة عين من نار أنفاسه.

من المؤسف ألّا يشهد على ذاكرتنا سوى نحن، نتكفَّل بتوثيق قصّتنا عبرَ عدسة آلة تصوير رؤيتنا، فنحتجز في صندوق عقلنا ما حفِظَهُ أرشيف تاريخنا، نودِعُهُ مدى الحياة كي لا يتسنّى لنا أن ننسى.

لا أحد سيشاركنا ما سنشعر به حين تحوم غربان الذاكرة فوق جِيَف حطامنا، تودُّ لو أن هنالك من قرأ معالم وجهنا، ورسمها على جدار الزمن، تطلبُ خلوداً للحظاتٍ مرَّتْ، تتمنى لو كانت دهراً، عندما يُمسكُ الله قلبك، وتشدو طرباً من لوعة الفرح المقدَّر لك، بحزنٍ دفين مكابر، تود بعده لو تنتهي الحياة، أو تستمر دون أن يتقدم الزمن بذلك الجمود، والسكون المطبِقَين، تصبحُ الكلمات شوائبَ، والصوت ضوضاء تثير فوضى المشاعر.

تُنشِدُ سلاماً دائماً، وسكينةً في القلوب العذرية، وأنت توشك على الانهيار، تدور في رأسك أسطوانةٌ موسيقية تصويرية تُناسب مجريات الواقع، كي تهرب منه نحوها، تلك المتكئة على كفّها،

كأنها تحلم، وعيناها تبرقان للأعلى، يلاحقهما، ليدنو من نجوم فضائهما... ولم يصل.

أكانت تلك رشوةً عاطفية، رسالةً استفهامية عن مصير الاشتعال الدائم في حرائق خصوبتها...؟؟!!

هل ستُطفِئ جمرات السؤال ليحصُدَ رماداً من ذوبان القلب في جليد صمتها؟؟!! أم ستستمر في إيقاد ما تبقى من حطب روحهِ الملوَّعة.

على الرغم من جحيم صُحبتها، إلّا أنه مدينٌ لها بالتعرف على ذاته أكثر من قبل، لقد أدرَكَ بأنها قد جعَلَتْهُ ينضج على عَجَلٍ، بعد أن حافَظَتْ على معيار الحرارة المناسب لطهو خبز صحوَتِه في فرن الحياة، عند درجة استواءٍ شعورية تتمكن من شواء لحم خبرته المتناثر على مائدة اللقاء.

يشعر الآن براحة فؤاده، وعقله، كمن أودَعَ وصيته بين يديها، لقد سلَّمَهَا منديلاً مطرزاً بالكلمات، أسطوانة صوتية مدجّجة بالأحاسيس، فضلاً عن ملفٍ ورقيّ، وهبهم لها، وربما أعادهم، كونها صاحبة القصد، والمراد، فهو يؤمن بأن كل شيء يكتبه سيكون ضمن ملكيتها، لها حقوق الاحتفاظ به أو رميه في حاوية العمر الكائنة في زاوية ظلماء داخل غرفة أفكارها.

يطلبُ منها أن تستعد للخروج إذا أرادت، مستدعياً النادلَ بإيماءة من يده، حتى يأتيه بالفاتورة.

بعض القرارات، والجلسات يُدفَعُ ثمنها غالياً بأموالٍ روحية تنفقها من حسابك المعنوي، لتضع ذاتك أمام إفلاسٍ عاطفي برصيدٍ لا يشغله سوى صفر وحيد، يختصر كل الأرقام، والدلالات،

والأسهم العشقية في مزادٍ سريّ بينك وبين قلبك، معلناً انسحابك، ماضياً على سجلاتٍ بيضاء بحبر اسمك، خاوياً من شيكات وهمية بلا إيداعات، مُفرَغاً من كل شيء إلّا وحشة عمرك.

هو الآن يدفع ضريبة حُبّهِ لها، بنقودٍ من ألمٍ، وأسى، بعدم ملكية قلبٍ هاربٍ من قفص الحبّ، وزنزانة الوقت، الحبّ يحتاج إلى الإنفاق الروحي، وليس للنفاق، ربما كانت منافقةً معه، كاذبةً بالقدر الذي يجعلها جميلةً، مرائيةً لدرجة السحر في صيد القلوب الثمينة، والنيل من نقاء مياهها.

تناولَ معطفها المرمي على الكرسي المجاور، ألبَسَها إياه، كطفلةٍ تحاول ارتداءه، رَفَعَتْ شَعْرَها بكلتا يديها كي لا يستقرّ محبوساً تحت ردائها، وإذْ برائحتها تهبُّ من جديد، ولكن بكثافةٍ حسّيّة هذه المرة، يا إلهي... كيف يقاوم لثم شعرِها والعبث بضفائره وتنشُّقِ أكسجين عطرها.

دائماً كان على يقينٍ بأن للإناث رائحةً لا تتعلّق بعطرهن، كالورود يفوح منهن عبيرٌ ذاتيّ، دون إضافاتٍ خارجية تجعلهن قادرات على جذب المزاج الذكوري نحوهن، بلا جُهدٍ، أو تكلُّف.

هَمَسَتْ له بابتسامةٍ ممتنة على ما بدر منه بلباقةٍ رجولية أضحَتْ اليوم منتقصةً، نادرة، شبه مفقودة في واقعنا المؤلم.

يدعوها، لتتفضل نحو الباب، بإيماءةٍ من يده، مشيراً برأسه بودٍّ، وشكرٍ للنادل لإشرافه على ضيافة، وخدمة اللقاء عند تلك الزاوية المنسيَّة، والباقية في باله كوجهها المؤلم عند وداعه.

"النساء أولاً" ... أتحمل تلك المقولة مكراً ذكورياً في إفساح المجال لهن بالعبور، والتقدّم نحو المجهول..

أهو الإيقاع بهن في فخّ أعدَّهُ الرجال لينالوا من عزيمة المرأة بحجّة الاحترام، والتبجيل، وتقدير الذات؟؟!!

ربما يظنُّ الرجال أن المرأة هي الأقدر على تقصّي آثار المكائد، والمطبَّات الصناعية في الحياة عموماً، كونها المدبِّر الأول، والمخطِّط الأهم في وضع الجنس الآخر ضمن متاهة أنوثتها، وتعمُّد حصاره في دائرة الضياع.

لذا يعمدون إلى الزّجّ بها في مقدمة الطريق، عند بداية التوه معها، حين تكون رفيق الدرب الطويلة، صديق المشاوير الموسمية، حبيباً بنصف حبّ ونصف قلب...

لا يريد الآن سوى السير معها، قربها، في الأزقّة القديمة، يهوى التّرنّح بروحٍ طفولية إلى جانبها، يخشى معانقة كفها، أصابع يدها، كي لا يضطر إلى تركها للحظات، ثم محاولة الاحتيال للإمساك بها مجدداً، هو من يشقى حين يبتعد عنها، تلك الفتاة الممسكة بشرايين روحه، تقبض عليها بقسوة متى شاءت، وتدعها لترتاح ليبقى دمه متدفقاً في شغاف حبّه، بساديةٍ أنثوية طاعنة في خلايا تنهداته.

لا يعلم أين ستقوده تلك الطرقات الضيقة في مساحتها، والفسيحة في روحها، على الرغم من حداثة الشوارع، والعجلة المستمرّة في توسيعها، وإكسابها أمتاراً إضافية لتتسع كمَّاً كبيراً من زحف البشر بآلياتهم، ومعدّاتهم، إلّا أن هذه الأروقة تبقى معابرَ للحبّ والإنسانية، ممراتٍ خيالية لن نستطيع إعداد ما يشابهها، مهما تقدَّم بنا الوقت، وزادَتْ تخمة الحضارة في ابتلاع العراقة والجمال القديم، بطحن الجدران الطينية، والقناطر المعلقة

في صلب التراث، والجزء المنسيّ لمدينة لا تموت...

ثمّة حبٍّ يطوف، موسيقا تأتي من كل صوب، عشّاقٌ مزودون بمتاع الحياة، أرواحٌ ناضجة تضجّ بالحنين، هنا تنبعث المحبّة من الحجر، والبشر، روائحُ ممتزجة بعبق العطور، والدخان، والقهوة، كثافةٌ بصرية تعجّ باللّذة والبوح الشبقي للزمن...

أنحن محظوظون لأننا شهدنا على حضارة معمارية لأقدم مدينة في العالم!!! لم نكن ندري بأنها ستصبح مدينة الموت، والبكاء، والهجران...

سيأتي ذلك اليوم، حيث نتقاسم والمدينة أوجاعنا وآلامنا، فرحة بقائنا على قيد حبّ، وعهد الذكرى، سنتشارك هموماً، وأحلاماً، ونستذكر ماضياً لولاه لم نكن، ودونه لن نتألم نشوةً، كان لنا واقعاً كم تمنينا أن يطول ممتداً نحو الحلم.

ما أصعبَ أن تمرَّ بسلامٍ في رِوَاقٍ، كنتما فيه معاً، تنظر إلى قَسَماتٍ حجرية مررتما فوقها ذات ظهيرة، تحدد موقع خُطاها المتتابعة، تُلاحِقُها كأنها تدوس الآن، ليتألّم بازلت قلبك، ويئن باكياً حين تدرك أنّ كل شيء قد انتهى...

انعطفَا يميناً إلى الطريق المفضي نحو (باب شرقي)، حيث يرتفع قليلاً بشكلٍ متصاعد حتى يتقاطع في نهايته مع الشارع المؤدي يساراً إلى الباب نفسه، ويميناً إلى (سوق مدحت باشا) أو ما يسمى (سوق البزورية) الدمشقي.

عند هذا التقاطع تقبع (حديقة القشلة) المُشرَعَة دوماً بلا أسوار، بضعة مقاعد خشبية، وقُبَّعات جلوس إسمنتية، طقسٌ يبعث على الراحة، والطمأنينة العاطفية.

ممسكاً بيدها، عابرا طريقٍ وعُمرٍ لن يتكرر، وماذا يحتاجُ الرجل سوى رفيقةِ دربٍ تجاريه في الحُبّ، والنظرة، في الابتسامة، والفرح، تتفهَّم ما يجولُ في خاطره حين تلتقي أنظارهما، ليشُدَّ كفَّها بقوةٍ خفيفة مرحاً ولهواً، وتفعل هي الشيء ذاته، ليبرهنوا على المضي، والإصرار في مسار الحياة معاً مهما قَسَت الظروف، وعانَدَتْ الأقدار، والريح سفينتهم المعطوبة.

ما أجملَ أن يتوقف الزمن، وتُكسَرُ الساعات، والعقارب، لتموت الأرقام، والأوقات، ولا يبقى سوانا غريبين في هذا العبور، قريبين في دورة الدم الدَّافقة بيننا...

ياالشهقة أرواحنا، ومأساتنا، ياللوعة الفراق... ما أجملَ أن نعود ثانيةً... لنا...!!!!

كم نشتهي دروباً مررنا بها، كلماتٍ قُلناها، وأخرى لم نجرؤ على الإفصاح عنها...

ماذا سيقول لها؟؟ وهل للتعبير أذرعٌ ليضمها...

لقد حان وقت الصمت، فالكلام الآن لا يُسعِفُ الشعور، فهو يحتاج إلى توثيقٍ بصريّ يخزّنه في ذاكرة أيامه، فالحبّ إن لم يؤرشَف في مكتبة الروح بعيونٍ ذات لهفة، وعشق، لن يتبقى منه سوى خيالات مزيَّفة تختفي بتقادم الزمن.

هو يريد أن يحتفظَ بأحافير حُبّهِ لها، تلك الأشياء المدفونة لملايين السنين في صخور الحياة، ستذكِّرُهُ بها إن أزالت عوامل التعرية غبار العمر، لتظهَر في طريقه كنوز الإرث الحافل بوجودها.

على الضفة اليمنى من الدرب، ثمَّة محلٌّ لبيع الورد، فكَّرَ

بمفاجأتها بالقليل منه، ربما وردةٌ حمراء تقليدية تكفي، لتخبئها في كتابها، أو تزرعها فوق وسادتها (كما غنَّت فيروز)، ولكن هذه المرَّة سيخشى ألّا تعتني بها وتضيع مع ريح الذبول، والإهمال.

ولكنّه يُفَضِّل أن يحتفي بها على طريقته، كما يليق بالخيال أن يكون، وهو على يقين بأن ورود الأرض كلها لن تشفي غليل حُبِّهِ لتلك التائهة داخل أسوار المدينة المحاصَرَة بأبوابها السبعة، الملوَّعة بأملٍ سيأتي يوماً إليها.

الحُبّ... ذلك القاتل المتسلسل الصامت في زحمة الفوضى، والعبث، القابض على الأرواح كالموت، يُنَفِّذُ جريمته بكل حِرَفِيَّة، ويمضي، تاركاً خلفه جثثاً، ودماء، يعرفه الجميع دون رغبةٍ منهم في إلقاء القبض عليه متلبِّساً كل يوم بضحايا جدد، بل يشرعون في تقديم الأضحية له والعطايا – متجاهلين بإدمانٍ مفرط – حجم الألم، والعذاب المتروك، ليحصدوه هُم، أولئك الغارقون المفعمون بعطر سحره، ولذّة عذوبته، يستيقظون على نشوة صباحه، وأملٍ مُستَحدَث في استمرارية يومية لسطوته وطغيانه.

استأذَنَها قليلاً للدخول إليه، هو لم يشترِ لأحدٍ ما ورداً، كانتِ المرّة الأولى لشابٍ أهدى الكلمات قبل الزهور، والروح قبل الجسد، ربما اعتقدَ أن عباراته ورسائله تُغني عن بروتوكولاتٍ عاطفية معلَّبة، لأن العيون أصدق الحواس، والبوح دستور العاشقين.

إنّ ما نُقَدِّمُهُ للآخرين من هدايا، وتذكارات، ما هو إلّا هباتٌ رمزية من أعماق قلوبنا، وجيوبنا، كي نُحافِظَ على مكانتنا الروحية في حياتهم، ليشعروا بوجودنا المستمرّ، دون أن نغيب

لحظةً عن عيون انتظارهم، وشوقَهم لنا من حين إلى آخر.

العطاء في الحبّ كالعطاء في الحياة، عليك أن تكون كريماً باذخاً أمام من تُحِب.

يراجع ذاته ليُدرك بأنه قد خبأ حبّه الأبيض ليومه الأسود، هنا خَذَلَتْهُ الأعراف، والنصائح، بعد أن أجَّلَ حبّ اليوم إلى غد...

إليكِ الورود... كل الورود المبتورة من حقول الأرض...

باقةٌ منها بين يديه، في كيسٍ ورقي، متناثرة، منزوعة التويجات، مبعثرةً كما طلبها، بألوانٍ متعددة.

استَغْرَبَتْ هي، بعد أن ظنَّته سيأتي إليها حاملاً العديد منها، ليقدمها بكل حبّ، وامتنان، خاب أملها، ودُهِشَتْ بما فعل!!!

كيف يشتري تيجان زهورٍ فقط؟؟!!...غريب الأطوار، والمزاج، ذلك الشقي الحالم حتى في طريقته بالإهداء..!!

وصلا إلى طرف الحديقة، واتفقا أن يرتاحا على أحد مقاعدها الخشبية الملونة، تحت شجرة الكينا المظلّلة بفيءٍ لذيذ، وحَرّ الصيف المنتَظِر لهما عندها.

بَدَتْ له شهيةً بتعبها، وحرارتها، وجنتها المتورمة، كطفلةٍ فَرِغَتْ من لهوها مع نظيراتها تحت قسوة الشمس، ووطأة الحركة.

يعرِفُها جيداً في كلّ الفصول، وفي كُلِّ مرّةٍ يتعرّفُ إليها مجدداً، يطالع قمح يديها، حقول قلبها المزروعة بالبنفسج، شُرفاتها المحمَّلة بالياسمين، عطرها الزاخم بماضٍ حاضرٍ في متاهات ذاكرته.

حين ينظرُ إلى عينيها خلسةً، يرى ضوءاً، وألواناً لم يسبق له أن رآها، أللحب ضوءٌ لا يلاحظه سوى العشّاق؟؟!!

شعاعٌ فيزيائي يخترق الروح بأطيافٍ لونية، تحت واقعية، وفوق ميتافيزيقية!!!! كهرباءٌ معنوية، وكيمياء شعورية... تباً للعلم... لكل التفسيرات، والنظريات... فبعضُ القضايا تبقى أجمل، وأكثر متعة إن لم نجد لها جواباً، نحتاج للجهل أحياناً كي نستطيع التجاهل!!! لنغمض عيوننا عن حقيقةٍ ندركها ونخشى الاعتراف بها... الحبّ هو الحقيقة... فقط لا غير...!!

تلك المرأة الصيفية، شتائية المزاج، ترتاح من عناء الحياة، وهول الكبرياء على مقعدٍ انتَظَرَ قدومها ليُزهر، ويعود إلى أصله، شجر الحنين، هارباً من موطن غربته، ووحدته.

أمّا هو فقد انسكَبَ شمع ذوبانه على أرض احتراقه بلهيب شرودها، يُنصِتُ إلى صوت الماء المتدفّق في فمها، يتابع ارتطامه في جدران مروره – كم جميلٌ أن تلاحق تفاصيل من تحب – صدى سلوكه، تراقب عدد مرات تنفسه، وإيقاع نبضه، ضجيج صمته الصاخب حين تغفو الكلمات.

يقتربُ منها، يلاصقها، يضع يده على خدّها، ربما ليصدق أنّها هنا، بإغوائها، كأنها قطعة جليدٍ نارية!! تذوب في ظل الله، والطبيعة... يا إلهي... إنّه يشهد تقلبات فصولها، وطقوس تحولها..!!!

يا مائية الالتقاط، هل لي أن أذيبك فوق جلدي، لتمتدي على شواطئ مسامي، وتتغلغلي في أدمة تكويني؟؟!!

ابتَسَمَتْ، ولَمَعَ العِقْدُ حول عنقها، بَرَقَتْ عيناها بما هو أجمل من البوح، نظرةٌ تختصر آلاف العبارات، عتبٌ، وحبّ، وربما... وداع...

يتملّكُهُ الضعف، والارتباك أمام أنوثتها الشاهقة، التَقَطَ صورةً لملامحها في تلك اللحظة، تمنّى لو أتقَنَ الرسم في حياته، لامتلأت لوحاته بها، وأعان ذاكرته، وقلبه في التخفيف من كثافة الصور المحتلة لمخزن باله، وجَسَّدَها باللون أو بالفحم فوق القماش التشكيلي الفارغ من كل شيء كأوراقه البيضاء، لكنّه عاهد اللغة على الوفاء دائماً، كما عاهدها هي في صون وجودها مهما هَرَبَتْ منه السنون...

فَكَّرَ في أن يقول لها: "أحبكِ"... بَيدَ أن كلمةً من أربعة حروف لا توجز شيئاً مما يعتريه الآن...

لقد أضحَتْ هذه الكلمة جواز سفر لعبور العشّاق في قاموس الحياة العربية، أظن أنها أقصر تعبير عن الحبّ في جميع اللغات العالمية... وأخيراً، هنالك ما نتميّز به عن شعوب الأرض، كلمة حب تختزل حياةً بأكملها!!!

مَنْ قال إن خير الكلام ما قلَّ ودَل؟؟!!!

كم نحتاج لرصف الحروف، والمعاني، لنقول ما نشعر به أحياناً، سواءٌ برتابة أو تلعثم، بتردّد أو اندفاع، بخوف أو برغبة.

في النهاية لا بدّ أن نبوح، للكلمات ثقلٌ هائلٌ يجثم فوق صدورنا، معلَّقٌ كقُفلٍ ضخم يأسر طيور الراحة المعشّشة في قفصنا الصدري، نكسره بقوة ما نريده لنا، بدافع الحبّ، واللهفة، والحزن أيضاً.

كم من البشر قد وافتهم المنيَّة وفي حناجرهم أشواكٌ منسية بقيت في مكانها – بمرور السنين، والأحداث – رحلوا، وماتت الكلمات معهم، دُفِنَتْ بجانبهم، بصمت الرحيل، وتشييع الغرباء،

تنتظر، لتُزهر فوق قبورهم لتدل عليهم، وتقول: "هنا رُفات من رحل بقلبٍ... وذاكرة..".

بطفولةٍ رجولية، أخذ القليل من الورد المختبئ لديه، وراح ينثره فوقها بصمتٍ وحيوية، لقد سكبَ فوقها مطراً من الأزهار، وشلالاتٍ من الحب.

أغمَضَتْ عينيها، لتنتشي بفعلته، رَفَعَتْ يديها للسماء... تَنَهَدَتْ...

كان المشهد سريالياً، وواقعياً، انتبه الجميع له، ودفعهم ذلك إلى التصفيق، وإطلاق الصافرات مباركةً لهما، وتهليلاً لمشاعرهما، وانسجامهما.

ببطءٍ درامي، عَلِقَت اللحظة في أذهان المراقبين، تأثروا لما حصل، ها قد شهدوا على واقعةٍ عشقية جديدة في مدينةٍ لا تعرف ما ينتظرها...

وحده الحبّ... يجعلنا أجمل، وأنقى، وأطهر من ذي قبل...

ماذا سيحدث لو ترك لنا طغاة الأرض الحب؟؟... لا شيء غيره...، لينعموا بجشعهم، وحقدهم، وثرواتهم...

بالحبّ وحده تحيا الإنسانية... وبالمحبّة أيضاً تُبنى النفوس البشرية الصالحة...

كأنه رمى أحجار النرد خاصته، تلك الورود المبعثرة تحت مقعدٍ خشبي، والعالقة في شعرها، وثيابها، مدرِكاً مزاج حظّه، والمشيئة القدرية في الحصول على الرقم العاطفي المنشود، والمنقوش على أحد وجوه تعثّره.

ربما كان الرمز الرقمي السّرّي للدخول إلى بوابة روحها

فعلاً، هي العصية على الاختراق، و(التهكير) المبرمَج من قلبٍ مضادٍ محبّ، يريد شريناً أو حتى وريداً يصل بين ثغور قلبه، وممرّات قلبها، ليتذوق دم أنوثتها، ويتنهّد لرائحة عطرٍ لن ينساها...

تعتريه دائماً قوة الأمل بعد أيّ سلوكٍ تجاهها، آملاً بالحصول على جرعةٍ دسمة تقيه شرور الأيام – سُمّ الحياة وعبثيتها – فهو يعلم اللعبة اللغوية في إعادة ترتيب الحروف للوصول إلى معنىً مختلف في كل شيء.

الأمل، والألم طرفةٌ هزلية بين جحيمك، وخيالك، أرضك، وسمائك، دمارك، ونشوتك...

يالقسوة اللغة، وتمردها، إنّها سخرية الوجود منك على طرازٍ منمَّق... إنّها طعنة الاختيار، والقرار...

حقاً... ربما رمى جميع أوراقه الآن، مع آخر توبيجٍ ورديّ فارقَ كفّ يده، وطار صوبها، ليغفو على خصلة شعرها الصيفي الجميل.

نَهَضَتْ إليه بشغفٍ، وقد داسَتْ على بعض ما صادف قدمها من خريف وروده – عن غير قصد – تسمَّرَت أمامه كأنها ستختفي بعد قليل.

نَظَرَتْ بتمعنٍ شيّق إليه... نَطَقَتْ: "شكراً...على ما فَعَلْتَ.." وسقط الكلام.

لم تستطع إخفاء صوت اللمعان في عيونها، وهذا ما كان يقتله، لقد مات، وهو على قيد تنفُّس، فكَّر بالسقوط عنوةً، لكنّه نسي نفسه في عينيها...

أيُّ جبرُّوت تمتلك تلك الفاتنة، وأيُّ هروبٍ تتقنه حين تشعر بالضعف..!!!

تنتصر رغم هزيمة البريق في سمائها، حين يتألّم اللون فوق شفاهها، عندما يبكي الدمع في جوفها، كيف لها أن تأسر حبات الملح في مكامنها، وتدفن ما يجب قوله في مقبرةٍ جماعية للشعور.

يسمعُ صوتَ الكحل يئنّ فوق امتداد عيونها الشاهقة جمالاً... يا سيدة الكتمان... أطلقي رصاصك نحوي.. فالميّت لا يخشى الألم... دعيني أشتمُّ رائحة جثتي، لأشيّع نفسي بحضورك، وتشيّعيني، لنجعله مشهدنا الأخير في المسرحية الحياتية، فالحوار يذوب، والضوء يخبو بيننا، سيرحل المشاهدون لنا، مَنْ صفَّق إعجاباً بأدائنا، سيختفي المارّة يا عزيزتي، وتُغلِق الأبواب أبوابها.

سَيُطفَأ قنديل العمر يا حبيبتي... كيف سأمضي وحيداً في كلّ ليل...؟؟!!

وجهُكِ مقيمٌ في حبري، أينما اتجهتُ، ستسخر مني القناطر، والشبابيك، سيطاردني الليل في نهاري، ستبكي الأرواح دماً على ألمي...

أنا المجنون... أطاردُ ظلّي عند أعمدة الإنارة... ألاحقُكِ... أمدُّ يدي... فلا أجدُكِ...

اختَفَتْ الألوان من الأشياء حولَه، باتَ كُلُّ شيء عادياً، باهتاً، وبَدَتْ له هي كالماء، بلا طعمٍ، ولا لون، أو رائحة، ولكنّه لا يقوى على الحياة دونها... ما أصعبَ أن تموت، وأنت على قيد حبّ... وحياة..!!!

أن تُصاب بسكتةٍ عاطفية لا حِراك بعدها، بعد أن يدهَسك قطار المفاجأة خلال رمشة عين، أن تتلقى طعنةً من يدٍ قبّلْتَها ذات مرة، يدٍ مَسَحَتْ وجهك بالوعد، والجمال، توسَّدْتَها أنتَ، كأنها مهدك الأول، موطِنُكَ الآمن الجميل، الدافئ، والهادئ، تتبَّعْتَ خطوطها دون ملل، مسارات دروبك المفتوحة للحبّ، ولكن نسيتَ أنها ستُغلَقُ حين تتلاقى عند طرف كفّها، لتكون مصيرك، وقدرك، حظك العاثر بمطباتٍ حياتية تعيق استمرار تدفق دمك نحوها.

يشعرُ الآن بأنها تذوب وتتلاشى أمامه... كالحُلم كانت، وكالأمل ستبقى...

تمنّى لو أمسَكَ قلبه بكلتا يديه، ليعصره على مرأى من عينيها، يقطِّعُهُ فتاتاً صغيرة، ثم يذروه على خصلات شعرها، كي تسيل الدماء فوق وجهها، وتُدركَ حرارة الألم في خلاياه الدموية، وطَعم الملح المر في مصل عذابه.

يالروحِكَ الغضّة، عمرُك المدفون في رماد احتراقك، خيبتُكَ المطرَّزة بخيوط شالها، حلُمكَ المحطَّم عند عتبات نجومها، حزنكَ المكلَّل بتاج الشوك المترامي عند قدميها.

لن يُصدِّق ما حدث...!!! فالعيون لا تكذب، واللهفة بوحٌ سريٌ في قاموسها، هو على يقين بأن ما توجَّب حدوثه لم يحدث، طيور كلماتها لم ترجع إلى ديارها، رَحَلَتْ دون عودة، بتذكرة لها وجهةٌ واحدة، لا تنظر خلفها، بمسار لا يمنحها حقّ الالتفاف، والمضي وراءً، حيث الموطن الطبيعي، والحقيقي لكل شيء.

تمزَّق نياط قلبه، دَمَعَتْ عيناه كي لا يراها، اشتاقَ إليها، وهي هنا، تَمْثُلُ أمامه بتهمة الوداع... وأيُّ وداع... كأنه لم يلقها إلّا ليودعها...

تذكَّر أغنية الفيروز.. "لما ع الباب"... وقتئذ كان الباب لمنزلٍ عادي حيث العاشقان يتودعان عنده عندما كان الزمن أجمل...

واليوم لا أبواب سوى أبواب المدينة الشهيرة، وهل هنالك أقسى من مراسم الوداع في حضرة معالم مدينةٍ عتيقة، تشهد حكايتك، وتؤرّخ عند أزقتها، وحدائقها، فصول حياتك، ذكريات حُبٍّ لم يكتمل...

أشرعي أبوابك يا دمشق... فحبيبتي ستعلنُ الرحيل هذا المساء...

لن يكونا معاً بعد اليوم، حبل الياسمين سيتقطَّع أشلاءً، الورود المنثورة ستذبل، سيكنسها عامل النظافة، والريح، ستُطفَأ الأنوار من الشبابيك المتعالية، سيخلو الطريق من كل العابرين... إلّا نحن...

لقد رحل النور من عينيه، ينظرُ إليها بشوق المسافرين عند حدود البلدان وأروقة المطارات، كشتاءٍ يودِّع مضيفيه، ثقيلاً، مُتعَباً حتى من الأنفاس.

مخطئٌ وغيرُ واقعي، مَن قال إن السعادة لا تتعلق بوجود أشخاصٍ في حياتنا، ولا تتحقّق من الداخل، فحين تصاب بنكسةٍ عاطفية، كيف ستحصل على سعادتك المقبلة؟؟!!

لن تنسى، طالما للذاكرة زنزانات تتسع لكل الخراب المحيط بنا، وكل الجمال المارّ في عالمنا...

صدّقوني.. الحقيقة لا تُخفى على أحد، فسعادتنا تكمن حين

نشعر بالقيمة، والاهتمام، والحبّ، نحن من نأخذ الحياة على محمل الجدية، لا بدّ لنا أن نشقى، ونتعب، ونبكي لأننا حقيقيون، لم نعرف الزيف والبهتان يوماً...

سنحيا تعاستنا، وهمومنا بكل قوة، لأن مسارات الإحساس مشرعةٌ نحو الله، ستتقاذفنا الأمواج، والرياح، سنغرق في شبر رمالٍ، ولكن في النهاية... سننجو بالأمل... لنحظى بالحياة.

وأيُّ أملٍ..!! ذلك الذي غنَّتْهُ فيروز في آونةٍ قريبة، لتزرع الحياة في نفوس الحالمين بالكمال، والاكتمال، ولكن لن تهدينا الحياة أكثر مما نستحق...

بعض الأحلام لم تُفَصَّل على مقاس أرواحنا، فلربما لو تحقّقَتْ لكان فيها خلاصنا، وزوالنا...!!!

كان مؤمِناً بما سيحدُث، مستعدّاً لتلك الزلازل، وارتداداتها حين تعصف به، دون أن يخفي حزنه، وتبعثُر خلايا قلبه المشظّى كورودٍ رماها فوقها في تلك الحديقة.

لن يلتئم جرحه يوماً، قَدَرُهُ أن يستمرّ نزف روحه حتى الرمق الأخير، لقد فَرِغَت الدنيا من كل البشر، إلّا هي، فالحبّ حالةُ إقصاء لكل شيء حولنا ما عدا الحبيب، يضحي هو كل شيء، موجِزاً حياةً بأكملها في لقاءٍ مستقطَع خارج الزمن، لتهبهُ أنتَ كل ما لديك في دنيا التقيتما فيها... لتفترقا... بعد حين...

أيُّ عدالةٍ عاطفية تحقِّقُها السماءُ لنا، تضعُنا على موازين عشوائية لتقيس مقدار الذنوب والخطايا التي ارتكبناها في حقّ الآخرين، ولكنّها لن تحاسبنا أبداً على ما اقترفناه تجاه ذواتنا من جَلْدٍ، وتعذيبٍ لأرواحنا الغارقة بالحنين.

كيف تصفع نفسك إلى حدّ الموت، أليس لكل جريمةٍ عقاب؟؟!!

نحتاج أحياناً لصفعاتٍ إلهية، لنصحو لما نحن فاعلون، أيكون الحبّ حماقةً ترفضها السماء، لتحمينا من جحيمٍ محتَّم سنهوي به؟!!

لا شيء أسوأ من أن تودِّعَ أحداً تعرف أنك لن تراهُ ثانيةً... تدرك جيداً أنه على قيد ذكرى، وحياة، ولكنّه اختار مساراً آخر لا يتقاطع مع مسار دورتك الدموية، دون أن يترك مساحةً لحدوث صدفةٍ أو احتمال لقاء عبثي عند مفارق الأزقة، والطرقات.

على الرغم من قسوة الفكرة، إلّا أن الموت سيكون حلّاً مؤلماً أيضاً، فوحده يأخذ من نحب بلا أمل في العودة، يسرقه، لنشقى، ثم يأتي زمنٌ نعتاد فيه على غيابهم، طالما لن نسمع خطا أقدامهم، وصدى أنفاسهم يجول في عالمنا، ودروب أوهامنا...

هل سيعتادُ بقاءها في صفحات كتابه؟؟!! كيف سينساها؟؟!!، وهي كل ما يملك في حياته.

الحبّ... ملكية الآخر بصكٍّ إنسانيّ وعقد اجتماعيّ، بمجرَّد أن يمسك قلبك بكلتا يديه ليصبح مرهوناً بوجوده، نابضاً لأجله، مفعماً بياسمين عطره، جميلاً كقطرة دمٍ فوق زهر الليمون.

حان وقت الرحيل، ذلك الوداع المجلجل بالحسرة، والهجران، لقد حلَّ خريف الفصول، والعلاقة بينهما، تساقطَتْ أوراق الحبّ من شجرة الكينا المرافقة لدروبهما، تكسَّرَتْ الأضواء عند عتبات المنازل، والأرصفة، لا وقت الآن إلّا... للوداع.

لم يُدركا أين ستقودهما الدروب عند مفارقة المكان، هل يفترقان كُلٍّ إلى وجهتِهِ؟؟!!

هو الذي لم يستطع أن يدير ظهره لها ويمضي، وهل من أحدٍ استطاع أن يفارق روحه، وهو على قيد اشتياقٍ، وحبّ، مزوَّداً بوعيه الكامل، وإدراكه المستمر؟؟!!

في لحظةٍ ما، يشعر العاشق بالعجز التام، واليأس المفاجئ حين تراود ذهنه فكرة الفراق، عندها يأتي الموت في الدرجة الأولى، ليحتلّ مقعد تفكيره، مرتبطاً بانشقاق الأرض وابتلاعه، فلربما ينتظرهُ جحيمٌ أفضل مما هو عليه الآن، هارباً من ألمٍ سقيم، وطعنةٍ توجعه، طالما الأنفاس تعمل، والنبض متعاجلٌ، والحياة تسرق اللون من لوحته... حبيبته..

بتَهَدُّجٍ مُربِك، وصوتٍ محروق بنظرة استجداء، وحسرة... قالها:

– "سأراكِ مجدّداً؟؟".

– "ربما، سأحاول أن نلتقي، دعها للأيام، تقودنا نحو مصيرنا، كما فَعَلَتْ بنا..".

كأنها قالت: "لا"... ولكنّها فضَّلتِ الإطالة بإيجاز، كي لا تقضي عليه في الجولة الأخيرة بالكلمة القاضية – اللكمة القاتلة – تباً للغة حين تقفز الحروف لتنسج معانٍ متشابهة، وأيُّ لُغَةٍ ستوجز ما يدور في دماغ خلاياه العاطلة عن كرهها واحتقارها.

كان الليل يهبطُ بخفّة الغيوم فوق المدينة، عندها يصبح لدمشق ملمسٌ ورائحة وصورة أجمل...

كم من الليالي مَرَّتْ على سحنة وجهها، ليتوجَّب علينا أن نوثّقَ تعاقب الليل، والنهار على مدينة تحيا كأنثى مراهِقة، عجوزٍ

تائهة، وامرأةٍ تشتهي الحبّ بعد الأربعين.

هو فخورٌ بانتمائه لها... وتلك القاتلة أيضاً...

دمشقُ... أيّتها الأم المفجوعة بفقدان أبنائها، الحزينة على أوجاعهم، وخساراتهم العاطفية، والروحية منها، لو كان لها دموعٌ، لانهارَتْ من قاسيون، لتروي ظمأ بردى بملح صبرها، وشدّة مأساتها.

إنّها المرأة المطعونة بألف سكيّن، المذبوحة عند حواف الجبال، والمصلُوبة عند صخور المعابد، والساحات.

كم تمنّى أن يتسلّق جدران القمم الصخرية، لينقش بدمه عبارة كتلك المدموغة على صخرة من صخور (الربوة):

"اذكريني دائماً"... كأن من كَتَبَها أراد أن يجعل منها "طبعةً أحفورية عشقية" تحيا، وتبقى لملايين السنين، فلربما يكون الأثر المديد هو الأكثر فعالية لاستمرار التذكار، ومكافحة النسيان، ولو بعد حينٍ، وأجَلٍ طويل.

إنّه الجنون.. كما يكون... بفعل حرف النون... "نون النسوة"..

هذا بالنسبة إلينا – نحن الذكور– أنكون نقطة النون "ن"؟؟!! والنساء هن الانحناء، والالتفاف، والحضن المستوعِب لأثرنا المختزَل بنقطةٍ في ظلّ الاحتواء الكبير لنا بذراعين فوق السطر... إنّها فلسفة اللغة، ودلالاتها...!!!

النساء.. هنّ السبب الأساسيّ للحياة، إنّهنّ مصدر الطاقة، والحبّ، والسعادة، الحروب، والخلافات، الحزن، والفرح، المرض، والأرق، الموت، والولادة...

يتحتَّمُ عليه أن يواجه الأنوثة، وليل المدينة، انقلابها على

سلطته، وإعلان ثورةَ رفضٍ لسطوتهِ، هي الآن تهرب من بين أصابعه كالماء، تتلاشى كضبابٍ حان موعد اضمحلاله.

حقاً كانت سراباً، رؤيةٌ كاذبة لكنّها مرئية، خدعةٌ بشريَّة تفتكُ بقلبه، بهزليةٍ صريحة من عبث القدر، ولعبته.

يريد القليل من كسب الوقت بجانبها، بعد أن خسر حربَهُ ضد الحياة برفقة حُبٍ لم يُقّدَّر له أن يكتمل، وكأنه يودِّع وجهها سارقاً نظراتٍ مختزنَة في حجرة الذاكرة المخفية، حيث لا وجود إلّا لمن تمرّدوا على النسيان، أولئك من تحتفظ الحواس برائحتهم، وكلماتهم، وصفحات وجوههم، من أقفلوا الأبواب، ومكثوا بين جدران البال دون أن يمرّ الزمن فوق جباههم، وقرروا ألّا يكبروا، لتبقى صورهم راسخةً في الوجدان مهما هبَّت رياح السنين، والغياب..

سيقطعا درباً يعرفانهُ جيداً، بين تلك البيوت، والمحلات، والأسواق، يودُّ أن يشاهدها، ويلاحقها بنظراته، ولكن بعيون الأماكن، يطالبها بأطول وقتٍ ممكن معها في كنف المدينة، عند الممرات الضيقة، والأزّقة، مقاهٍ عبراها معاً، ليشهدوا رحيلها، وهجرها له.

كلما توَغَّل أكثر، زادَتْ لوعته وحسرته، تضخَّمَ حزنه ويأسه، هنا الجامع الأموي، وساحة الحمائم أمامه، نافورةُ ماءٍ مطفأة، فسحةٌ لمراجعة الذات والفكر، حيث تشعرُ بأنك تحتضن كلّ ما حولك، ثمَّة طاقة خفيّة تُبْعَثُ في روحك، ربما هي الذكريات معها من تزوِّدُهُ بذلك الشعور الجميل المتُعِب.

تنهَّدَ بحُزنٍ، التفتَتْ له لتُلاحظ أثر الهزيمة على ملامحه، أمسَكَتْ يده، أومأت برأسها للمضي في السير...

يا الله ما هذا العذاب...؟؟!!

كانت نسائم الليل تداعب شعرها، ليتحرّك قليلاً إثر الهبوب الخفيف، تتطاير معه أحلامه، ورغبته في ملازمتها مدى العُمر، ولكن لا بدّ للحياة أن تحرمك من شيء، وتمنع عنك الأمل في الوصول إليه، حتى لو كان ممسكاً بيدك التي تتحسس بها نبضه...!!! تتمنّى ألّا يُفارِقَك كأنه طرف ثوب أمّك، تشدُّ خيوطه كي لا تنساك أرضاً، لتحملك بين ذراعيها بعد أن أنهكَكَ التعب، مشتاقاً لدفء حضنها، متمنّياً الموت على صدرها.

ما أجمل أن تستسلم في حضن أنثى، تُسَلِّمُ كامل أسلحتك، ورجولتك لها، تعترف بضعفك، وهزيمتك، تتخذه ملجأً لك حين تودُّ أن تنزع عنك قناع الحياة، لتظهر كما أنتَ بحقيقتك، تذرف دمعاً يبلل عُنُقَها، تبوح لها بأنك تأخذ قسطاً من الروح، والراحة، كي تقوى على الاستمرار في مقاومة ذاتك.

كم يتمنّى عناقها، ذلك العناق حيث تتداخل الأجساد، والأرواح، لتنسى نفسها بين ذراعيه، ويُصبِحا كائناً واحداً، سيضمُّها بقسوة التلاشي، والذوبان، كي يتوحدا معاً وينصهرا بلا فراق..

سيقودهما الطريق إلى جوار (قلعة دمشق)، حيث الشارع سيزداد اتساعاً، لتحدَّهما (الحديقة البيئية)، وبعض المنازل المُطلة على فرع من فروع نهر بردى المُحتَضِر.

يعشقُ الجلوس هنا، عند مقاعدَ إسمنتية مواجِهةٍ لجدار القلعة، ربما كانت المحطة الأخيرة للقاء، صمتٌ مُطبِق يعمُّ الموقع بعض المارّة، يُسمَعُ طرق أحذيتهم فوق حجارة الطريق، حفيف الأشجار هامسٌ يوحي بخريفٍ مؤلم...

ها قد وصلنا... لنرتاح... ليسكننا الوداع... أخيراً...

هنا المعقِلُ الأخير لبقايا الحب، حُطامُ قصّته وروايته... ربما تلك صُدفةٌ أن تكون لُجَّةُ الهزيمة عند عتبات قلعةٍ صامدة في وجه الزمن والتاريخ، مقاوِمةٍ لنيران الأعداء، وأسلحة الرجال المحاربين عبر دهورٍ متصارعة، ومعاركَ حامية الوطيس.

لم يستطع أحدٌ أن يُفَتِّتَ حجراً واحداً من حِصنها الشاهق، تلك المطوَّقة بالصخر، والحديد، والنار، مُحكَمةُ الإغلاق، والأقفال، لا سبيل للوصول إليها، على الرُغمِ من توضُّعِها في قلب المدينة وانخفاضها دون مستوى الجبال والتضاريس والقمم العالية.

بصوتٍ خارجٍ من خيبته، زاحفٍ نحوها بتقطُّعٍ وألف غصَّة:

– "انتهينا... سأحتفظُ بطعنتكِ ندبةً أطمئن عليها كل صباحٍ أمام مرآتي المتكسّرة...".

بِحُزنٍ جميل، قالت ملتفتةً نحوه:

"ليتها كانت وردةً تخترق قلبك، لن أسامح نفسي كلما رأيتُ دمكَ فوق أوراقك، يا صائغ الكلمات، أعلم أن روحك مُصدَّعة، وجسدك مُحطَّم، ولكن أنا على يقينٍ بأنك لن تسقط ما دُمتُ أعرِفُكَ جيداً، أشعر بنزيفك الآن، بغناك العاطفي، وحُبِّكَ الجارف، ستنتظرنا كارثةٌ إن قبضنا على الحبّ هذا المساء، وربما سنحيا إن افترقنا ببساطة الأطفال، وتعاهدنا على عُمرٍ جديد من الاستمرار بتلقائية أرواحنا..".

بخُذلانٍ مرير... نطقَ:

– "أردتُكِ حبّاً... خسرتك عُمراً...".

علَّمَني الحبّ أن لا أنصاف حلول فيه، إمّا الوصول إلى قمته، والحصول عليه، أو السقوط من جُرفٍ صخريّ لا عودة بعده،

فالحبّ لا يتجزأ، ولا يتحوّل إلى أشكال وأطياف وعلاقاتٍ بمسمياتٍ نخترعها، أن أُقَدِّم قلبي على طبق كفيّ، وأسافر نحو الغيوم لأحضرها لكِ، أن أُخَيِّط شالاً من الألوان يحميكِ من برد الشتاء، وأن أقطف السنوات من عمري لأضعَهَا في رصيدك الحياتي...

الحبّ نبعٌ منبثق من صدر المُحِبّ لا ينضَب، مكرّساً خوفه، قلقه، فرحه لأجلك...

أن تخسر الجميع لتكسَب شخصاً واحداً فقط لا غير...

ما أجمَلَكِ... حبيبةً، وعشيقةً، ما أشهاكِ مودِّعَةً راحلةً، سأحسدُ الطريق حين تعبرين فوقَهُ، سأغبِطُ المطر المبلّل لشَعْرِكِ.

هنيئاً للأيام بكِ... حين يمرُّ الوقت في ساعتك، سأتذكرك كلما أكمَلَتِ السنة دورتها، بشروق الشمس، وظهور القمر، سأجِدُكِ في مرآتي كل صباح، في وجوه العابرين، والعشّاق، ستحميك دعواتي، وصلاتي.

سأعشقكِ دون أن تعلمي – مرّةً أخرى – ولكن لن أعترف إلّا أمام ذاتي...

سِرُّنا سيبقى مطوياً في أدراج قلبي، عِطرُكِ سيرافقني ما حييت، حين أتوه سأجدكِ حتماً، سنلتقي، ونجلس، لنتحدث، لنشرب قهوتنا، ودموعنا، سيغمرنا صوت فيروز، ونخطُّ فوق طاولتنا، حروف أسمائنا...

سيمرُّ الوقت لأكون هنا قبل الموت، لأودِّعَكِ عجوزاً جميلة... وحيداً... لا شيء سوى صوت الصمت...

إنّها النهاية... حيث لا نهاية في الحقيقة... لا نهاية في الحب...